تأملات في سورة

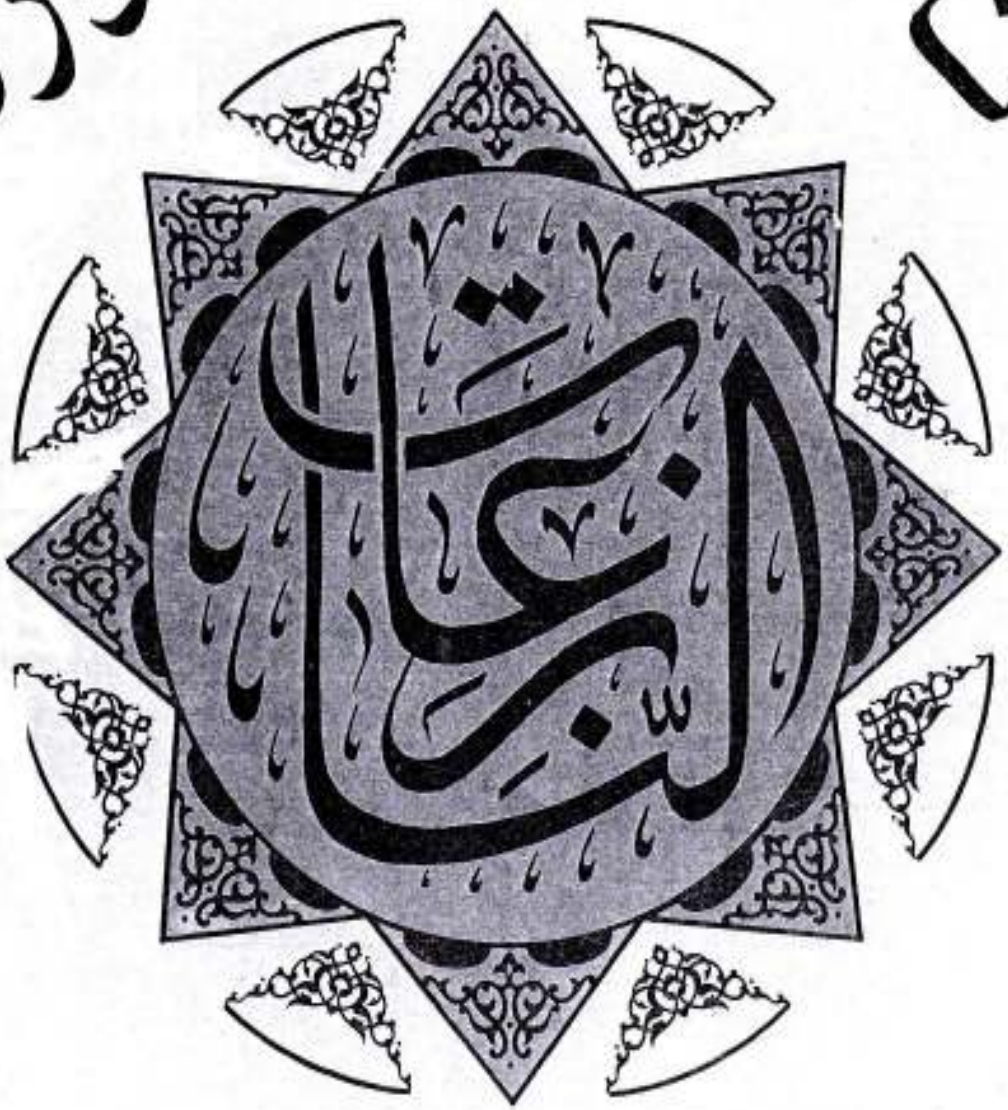

الدكتور حسن محمد باجودة

أستاذ الدراسات القرآنية البيانية

جامعة أم القرى بمكة المكرمة

تأملات في سورة

الدكتور حسن محمد باجودة
أستاذ الدراسات القرآنية البيانية
جامعة أم القرى بمكة المكرمة

الطبعة الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هـذه دراسة متأملة للسورة الكريمة «النازعات» وهي بعنوان «تأملات في سورة النازعات».

وقد أخذت الدراسة في الاعتبار عدداً من المسائل منها:

١ ـ السياق والترابط المعنوي بين آيات القسم الواحد وبين أقسام السورة الثمانية. وقد تبين أنَّ قضية البعث بعد الموت، هي المحور الذي تدور حوله السورة الكريمة.

٢ ـ بما أن القرآن الكريم يتجلى فيه دائماً وأبداً التوازن العجيب بين القدرة على إرضاء العقل بفصوص حكم المعاني وإشباع النفس بجميل تركيب المباني، لذا كان في دراستنا ميلٌ واضحٌ لإعطاء ظاهرة التلاؤم الصوتي حظها. وقد تجلت هذه الظاهرة في أشكال متعددة. وبما أن اعتمادنا على المقاطع الصوتية كان كبيراً، فإنا نود أن نعطي فكرة سريعة عن هذه المقاطع. إنها ثلاثة، قصير ومتوسط وطويل. أما القصير فهو عبارة عن حركة. وأما المتوسط فهو عبارة عن حركة فسكون. وأما الطويل فهو عبارة عن حركة فسكونين. ومن هنا يتبين أنّ كل مقطع صوتي، ينبغي أن يبدأ بحرف متحرك.

٣ ـ ومن أهم ما روعي في أثناء الدراسة، الطبيعة الاشتقاقية للغة العربية. تلك الطبيعة المسعفة على الوصول إلى المعنى المقصود. وقد تجلى ذلك

بصورة واضحة، في أثناء دراسة لفظة الحافرة التي جرت على لسان كفار مكة في قوله تعالى: ﴿أئنا لمردودون في الحافرة﴾ وقد تبين أن دراسة حياة العرب قبل الإسلام أمر مهم في سبيل فهم كل من القرآن الكريم والحديث الشريف ودراستهما دراسة بيانية.

وأقول عن هذه الدراسة المتواضعة، ما قلته عن كل الدراسات السابقة، للسّور التالية، يوسف، مريم، يس، الإسراء، الفرقان، العاديات، إني أشهد الله الّذي لا إله إلاّ هو أنّى لم أشأ وقتاً من الأوقات، أن أحّمل حرفاً واحداً من كتاب الله تعالى فوق ما يحتمل. ومن كان له على هذا العمل أيّ ملاحظة، فلا يتردد في إعلانها، فالحق أحق أن يتبع.

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يأخذ بأيدينا إلى أقوم سبيل، وأن يعفو عما بدر منا من تقصير، وأن يتقبل منا صالح الأعمال، إنّه سميع مجيب. وصلى الله وسلم على رسوله وحبيبه محمد الأمين، والحمد لله رب العالمين.

مكة المكرمة

الجمعة الموافق ١٣/ ٤/ ١٣٩٧ هـ ١/ ٤/ ١٩٧٧ م

الدكتور حسن محمد باجودة
أستاذ الدراسات القرآنية البيانية
جامعة أم القرى بمكة المكرمة

بين يدي السورة

سورة النازعات مكية[1] وآياتها ست وأربعون[2] وحروفها سبعمائة وثلاثون. وكلمها مائة وسبعون[3].

وفي إمكاننا أن نقسّم السورة من حيث الوحدات المعنوية التي تعرض لها إلى الأقسام الثمانية التالية.

١ ـ ﴿**والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا**﴾ الآيات ١ ـ ٥.

٢ ـ ﴿**يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة**﴾ الآيات ٦ ـ ٩ أربع آيات.

٣ ـ ﴿**يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاماً نخرة. قالوا تلك إذن كرة خاسرة**﴾ الآيات ١٠ ـ ١٢ ثلاث آيات.

٤ ـ ﴿**فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة**﴾. الآية ١٣، ١٤ آيتان.

---

(١) الاتقان ١/ ١١ وتفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري، مطبوع بهامش الطبري ١٣/٣٠.

(٢) جاء في تفسير غرائب القرآن أن عدد الآيات خمسون. ومثل هذا الرأي يعتمد على اعتبار بعض الآيات التي تميل إلى الطول النسبي والتي تشتمل الواحدة على فكرتين متميزتين آيتين وليس آية واحدة كهذه الآية الكريمة مثلاً ﴿**وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى**﴾.

(٣) غرائب القرآن ١٣/٣٠.

٥ ـ ﴿هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾ الآيات ١٥ ـ ٢٦ اثنتا عشرة آية.

٦ ـ ﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها. متاعاً لكم ولأنعامكم﴾. الآيات ٢٧ ـ ٣٣ سبع آيات.

٧ ـ ﴿فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى﴾. الآيات ٣٤ ـ ٤١ ثمان آيات.

٨ ـ ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنّما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلاّ عشية أو ضحاها﴾. الآيات ٤٢ ـ ٤٦ خمس آيات.

عرض سريع للسورة:

أقسمت السورة الكريمة ابتداءً بالنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا. أما جواب القسم فمحذوف تقديره لتبعثن. وإذا قبلنا رأي جمهور العلماء بأن القول «والنازعات غرقا» معناه: أقسم بالملائكة التي تنزع أرواح الكافرين ساعة الموت بشدة وعنف، وتبينا أن جواب القسم «لتبعثن» محذوف، لأنه مفهوم ضمناً، استطعنا أن ندرك لأول وهلة التجانس بين مطلع السورة الكريمة وبين هدف من أهم أهدافها وهو قضية البعث بعد الموت. بل إنّنا لا نكاد نغالي في قليل أو كثير

حينما نقول: إنَّ قضية البعث بعد الموت عبارة عن المحور الذي تدور حوله السورة الكريمة، والهدف الذي تسعى إلى تقريره وتقريبه إلى الأذهان كي يصدق به المكذبون وكي يستعد له الجميع.

ما أقرب الشقة بين الموت وبين البعث. فليس ببعيد عن أذهاننا القول: من مات قامت قيامته. ومن قُدِّر له أن يكون موجوداً وقت النفخة الأولى التي تميت بإرادة الله تعالى كل شيء، فما أصدق القول السابق في حقه، خاصة وأن بين هذه النفخة الأولى وبين النفخة الثانية التي تحيي بإرادة الله تعالى كل شيء، كما جاء في الحديث أربعين، رجح البعض أنها أربعون سنة. إنَّ القسم الثاني من السورة، يتحدث عن هاتين النفختين قال تعالى: **﴿يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة﴾**. ويبدو بوضوح الزاوية التي تنظر منها الآيات. إنّها الزاوية التي تتمشى مع القوم الكافرين، الذين يوجه إليهم الحديث بالدرجة الأولى في هذه السورة الكريمة التي تعنى بأسس العقيدة. وأكبر دليل على ذلك أن القسم الثالث يتحدث عن موقف هؤلاء الكافرين يوم القيامة. إنه موقف المنكر المستهزىء. قال تعالى: **﴿يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة. يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاماً نخرة. قالوا تلك إذن كرة خاسرة﴾**.

ومن مظاهر رحمة الله تعالى بعباده أن يمهل ولا يهمل، وأن يضرب للكافرين المثل تلو المثل، كي يأخذوا العظة والعبرة. لذا تختار السورة الكريمة في القسم التالي موقف طاغية من الطغاة عبر التاريخ. إنَّه فرعون مصر، الذي أخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر **﴿ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾**[1] بعد أن قامت عليه الحجة البينة. إنّ كفار مكة لا يستطيعون أن

---

(١) سورة غافر: ٤٦.

يزعموا أنهم أشد قوة وأكثر مالاً من فرعون مصر، وإنَّ انتقام الله تعالى من فرعون، معناه أنهم، على أحسن الفروض، في مثل هوان فرعون الطاغية. لقد كان الأَوْلى بهم أن يأخذوا العظة والعبرة. ولكن بما أن مستوى القوم الفكري دون المطلوب، لذا هم ينكرون أن تكون ثمة القدرة القادرة على إعادة الحياة إليهم مرة ثانية. إنَّهم لو حكّموا عقولهم بإنصاف واعتدال، لانتهوا إلى أن خالقهم من العدم قادر على إعادة الحياة إليهم. ونقول بمنطق القوم: إنَّ إعادة العمل أسهل من ابتدائه، مع أن الأعمال كلها سواء في حقه عزّ وجلّ. وكيف ينكر القوم قدرة الله تعالى المطلقة، وإنَّ أقل قدر من التفكير السليم، ينتهي إلى أن خلق السموات والأرض، التي يعترفون بأن الله تعالى خالقها، أكبر من خلق الناس، وينتهي بالتالي إلى أن إعادة الحياة إليهم عمل غاية في البساطة والهوان في حقه عزّ وجلّ. لقد كان الأَوْلَى بكفار مكة ألاَّ ينكروا يوم القيامة وألاَّ يستهزئوا به بل أن يؤمنوا بوجوده ويعدوا العدة له. إنَّ هذا الهدف، الذي هو هدف السورة، قد عناه تحول الآيات إلى الأشد طغياناً في مجال البشر، أعني فرعون مصر. والأشد قوة في مجال المادة، أعني السماوات والأرض.

أما وقد تهيأت كل نفس لأن تفهم أنَّ إعادة الخلق هين في حقه عزّ وجلّ، فقد تحول السياق إلى يوم القيامة، إلى الطّامّة الكبرى التي تطمّ كل النوازل والدواهي وتفوقها. وواضح أن الحديث عن يوم القيامة من هذه الزاوية بالذات، راعى طبيعة موقف المعنيين بالحديث أساساً وهم كفار مكة. وإنّ التفاصيل تؤيد هذه النظرة حيث إنّ الحديث عن جهنم وأهلها أكثر من الحديث عن الجنة وأهلها. بحيث إنّا نستطيع أن نقول إنّ ست وحدات صوتية تتحدث عن جهنم وأهلها، وثلاث وحدات صوتية في آيتين من ثماني آيات تتحدث عمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فكانت الجنة مأواه. قال تعالى: ﴿**فإذا جاءت الطامة الكبرى. يوم يتذكر الإنسان ما سعى. وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى.**

وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى﴾.

وحيث إنّ محور السورة هو البعث بعد الموت فقد ختمت السورة الكريمة بتبيين الموقف الصحيح الذي ينبغي للناس أن يقفوه من ذلك اليوم بأن يستعدوا له، لا أن يسألوا عن موعد ذلك اليوم، تحدوهم دوافع شتى من استهزاء وإنكار وتعجّب وتكذيب وفضول وما إلى ذلك. إنَّ مثل هذا السؤال، مهما كان الدافع اليه، غير نافع. إنما الشيء النافع، هو العمل الصالح كي يثاب عليه الإنسان يوم الجزاء وإلاَّ فإنّ الحساب عسير والعقاب أليم. ووقتها يوقن الإنسان المنكر لحقيقة البعث والذي لم يعدّ العدّة لذلك اليوم العظيم بسبب إنكاره، تفاهة تلك الحياة الدنيا التي لم يكن يوجه سيره فيها الهدف السامي الذي خلق من أجله، ولا العقبة الكأداء التي عليه أن يتخطاها. لقد تكشفت الدنيا على حقيقتها لذلك الكافر، فهي ليست أكثر من حلم من الأحلام، وسحاب جهام[1]. ولم يقف الأمر عند ذلك الحد، إنَّما تجاوزه إلى كون ذلك الكافر معاقباً على كل أعماله السيئة التي قام بها في حياته الدنيا وفي مقدمتها إنكار يوم القيامة والاستهزاء به. قال تعالى عن هؤلاء القوم: ﴿كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلاَّ عشية أو ضحاها﴾.

من العرض السابق يتبين أن المحور الذي تدور حوله السورة الكريمة هو قضية البعث بعد الموت، وأن السورة الكريمة ابتدأت بما يؤدي إليه وهو الموت وسجلت أهم معالمه البارزة من نفخة أولى تميت بإرادة الله تعالى كل شيء، ونفخة ثانية تحيي بإرادة الله تعالى كل شيء، ويصحبها الصيحة التي يجتمع إثْرَها الخلائق لفصل الحساب ويتجهون بعد ذلك إمّا إلى الجنة أو النار. وإنّ كل ما تخلل هذه المعالم البارزة ليوم القيامة يهدف إلى حمل كل إنسان على إعداد العدة لذلك اليوم المجموع له الناس المشهود.

---

(١) لا ماء فيه.

الدراسة المتأملة

القسم الأول: مِنْ أعمال الملائكة

قال تعالى: ﴿**والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا**﴾.

من الواضح أنّ هذا القسم يتكون من خمس آيات، ذات نغمة صوتية واحدة تقريباً. إذْ تتكون كل من الآيات الأربع الأول، من سبعة مقاطع صوتية تتفق في كل شيء. أما الآية الخامسة، فبالإضافة إلى اشتمالها على ذات المقاطع السبعة، فإنها تزيد بمقطع صوتي قصير، عبارة عن حركة واحدة. ويجيء هذا المقطع في العدّ ثانياً، وهذا يعني أن الانتقال غير بعيد بين النغمتين، وأنّ الاتفاق في الناحية الصوتية بين الآيات الأربع الأول، يمكن أن يفهم منه أن وجهة الكلام في الآيات واحدة. وإنّ انفراد الآية الخامسة بزيادة مقطع قصير، من شأنه أن يحدث في النغمة اختلافاً بسيطاً، وبالتالي تنفرد هذه الآية بقدرتها على الإشعار بأنه ربما تحولت نغمة الكلام قريباً وجهة أخرى. وهذا ما حدث فعلاً. واللطيف في الأمر أن أولى آيات القسم الثاني تتكون من ثمانية مقاطع على غرار عدد المقاطع الصوتية الذي انفردت به الآية الأخيرة في القسم الأول. واللطيف في الأمر أيضاً أنه إذا كان قد نجم عن زيادة المقطع القصير في الآية الخامسة، كون المقاطع الثمانية ذات ترتيب مخالف لما سبق وبالتالي ذات نغمة متميزة، فإن بين هذه النغمة المتميزة في هذه الآية وبين النغمة في أولى آيات

القسم الثاني تشابهاً في الخمسة المقاطع الأول من المقاطع الثمانية في كل من الآيتين. وإنَّ هذا التشابه بين النغمتين معمق للعلاقة المعنوية الوثيقة بين القسمين على نحو ما مر بنا من قبل.

وحيث إنَّ بين العلماء اختلافاً كبيراً جداً بشأن تحديد المعنى المراد بالآيات الأربع الأول، وحيث إنَّ ثمة اتفاقاً بينهم أو شبه اتفاق[1] بأن المراد بقوله تعالى: ﴿**فالمدبّرات أمرا**﴾ الملائكة التي تدبر بأمره عزّ وجلّ الأمر من السماء إلى الأرض. فهل في الإمكان، انطلاقاً من هذا الاتفاق بين العلماء بشأن الآية الخامسة واعتماداً على أدلة أخرى، أن ننتهي إلى ترجيح رأي بعينه ومعنى مشترك بأنه، والله تعالى أعلم، هو المقصود بقوله تعالى: ﴿**والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا**﴾؟ هذا ما سنحاول، بإذنه تعالى أن نقوم به. وهذه هي خطواتنا التي تبدأ من أوضحها. ومن البديهي أن أوضح الخطوات تبدأ من الآية الخامسة التي اتفق العلماء بشأنها تقريباً. واللطيف في الأمر أن ابتداءنا من الآية الأخيرة، له القدرة على حمل اتجاهنا أن يكون عكسياً دائماً، ينتقل من الآية اللاحقة إلى السابقة وهكذا.

لاحظنا أن العلماء اتفقوا بشأن الآية الخامسة، على أن المراد بها الملائكة التي تدبر الأمر من السماء إلى الأرض بأمر ربها. فما الذي يلفت الانتباه بشأن هذه الآية الكريمة واضحة المعنى﴿فالمدبرات أمرا﴾؟ الذي يلفت الانتباه أنها هي والآية السابقة عليها ﴿**فالسابقات سبقا**﴾ تنفردان بالابتداء بالفاء. وحيث إنَّ الآية الخامسة معطوفة بالفاء على سابقتها المبتدئة بالفاء، وحيث إنَّ الآية الخامسة متعلقة بالملائكة، فمعنى هذا أن الرأي وجيه ذلك الذي يذهب إلى أن المراد بقوله تعالى: ﴿**فالسابقات سبقا**﴾ هم الملائكة. فمثلاً قال الحسن: سبقت

---

(١) أشار مثلاً القرطبيّ ص ٦٩٨٥ إلى الخلاف الذي يكاد يكون وحيداً.

إلى الإيمان والتصديق به[1] وقال مجاهد: الملائكة سبقت بني آدم بالخير والعمل الصالح[2]

ويبقى بعد ذلك سؤال هو: وهل في الإمكان أن نربط من الناحية المعنوية بين الآية الرابعة هذه المبتدئة بالفاء على غير مثال سابق «فالسابقات سبقا» وبين الآية الثالثة المبتدئة بالواو﴿والسابحات سبحا﴾ الحقيقة أن القرطبي جاء برأي عظيم للجرجاني حيث يقول[3]: «وقال الجرجاني: ذكر فالسابقات بالفاء لأنها مشتقة من التي قبلها. أي واللائي يسبحن فيسبقن. تقول: قام فذهب. فهذا يوجب أن يكون القيام سبباً للذهاب. ولو قلت: قام وذهب، لم يكن القيام سبباً للذهاب». إنَّ هذه اللفتة البارعة من الجرجاني تعني أن قوله تعالى: ﴿**والسابحات سبحا**﴾ متعلق بالملائكة أيضاً، وهو المعنى الذي نعتقد ـ والله تعالى أعلم ـ أن الآية الكريمة تعنيه. قال علي ومجاهد: الملائكة تتصرف في الآفاق بأمر الله، تجيء وتذهب[4] وكأن مجاهداً كان يرى أن نزول الملائكة من السماء سباحة، كما يقال للفرس الجواد إنَّه لسابح إذا مَرَّ يسرع[5] وقال مجاهد وأبو صالح: هي الملائكة ينزلون من السماء مسرعين لأمر الله، كما يقال للفرس الجواد سابح إذا أسرع في جريه، وعن مجاهد أيضاً: الملائكة تسبح في نزولها وصعودها[6].

فإذا تحولنا إلى الآية السابقة تبينا أنها تصاغ على غرار الآيتين التاليتين، الثالثة والرابعة، حيث إنَّ كلاًّ تتكون من اسم الفاعل من الثلاثي فمصدر.

---

(١) تفسير ابن كثير، ٤/٤٦٦.
(٢) البحر المحيط، ٨/٤١٩.
(٣) تفسير القرطبي ص ٦٩٨٥.
(٤) البحر المحيط ٨/٤١٩.
(٥) تفسير الطبري ٣٠/٢٠.
(٦) تفسير القرطبي ص ٦٩٨٤.

قال تعالى: ﴿**والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا**﴾. وقد نجم من ذلك تلاؤم صوتي لا يقف عند حدود الاتفاق بين الآيات في عدد مقاطع الآية، وموافقة صدور الآيات صوتياً، وموافقة أعجازها، إنما يتجاوز كل ذلك إلى كون الحروف في صدر الآية وعجزهامن أسرة واحدة، إذ لا تخرج حروف العجز عما جاء في الصدر. وسبق أن لاحظنا دور الفاء في الآيتين الأخيرتين في توجيه المعنى وجهة معينة، وفي الربط بين ما سبق الفاء وبين ما تلاها. وقد نجم عن ذلك تقدم الرأي الذي ذهب إليه جمهور العلماء على غيره من الآراء وحيث إنَّ الآية الثانية قد جاءت في ذات الصيغة التي جاءت فيها الآيتان الثالثة والرابعة التي ذهب الجمهور إلى أنها تعني الملائكة التي تسبح بين السماء والأرض وتسبق إلى ما أمرها الله تعالى به سبقاً، كي تدبّر بإرادته عزّ وجلّ الأمور، فإنّ في إمكاننا أن ننتهي، مستفيدين من الاتجاه الواحد في صياغة الآيات الثلاث إلى أن الآية الثانية تتعلق بذات الملائكة الذين شملتهم الآيات التالية في القسم. وهذا هو الرأي الذي ذهب إليه جمهور العلماء كذلك. فقالوا إنَّ الآية الكريمة تتحدث عن الطريقة الهينة اللينة التي تستل معها الملائكة أرواح المؤمنين المتقين. قال ابن عباس: يعني الملائكة تنشط نفس المؤمن فتقبضها كما ينشط العقال من يد البعير إذا حل عنه[1] والنشط: الجذب بسرعة، ومنه الأنشوطة، عقدة يسهل انحلالها إذا جذبت مثل عقدة التكة[2].

وقد يقول قائل: إن اسم الفاعل ناشط في الآية الكريمة من الفعل نشط، وإن القول نشطاً من الفعل ذاته الذي يفيد الربط وليس الحل، فقد جاء في اللسان[3] القول: وأنشطت الحبل أي مددته حتى ينحل. ونشطت الحبل أنشطه نشطاً ربطته. وإذا حللته فقد أنشطته. ونشطه بالنشاط أي عقده، وهلا

---

(١) تفسير القرطبي ص ٦٩٨٢.
(٢) تفسير القرطبي ٦٩٨٢ واللسان «نشط».
(٣) اللسان «نشط».

كانت الآية الكريمة بناء على ذلك ترتبط بالشّـدّ لا بالحلّ، بنزع أرواح الكافرين مثلاً لا بسل أرواح المؤمنين والجواب على ذلك بالنفي من وجهين.

الأول: هو أن العلماء من ذهب إلى أن نشط بمعنى أنشط[1] وزاد القرطبيّ[2] بأنهما «لغتان بمعنى. وعليه يصح قول ابن عباس المذكور أوّلاً».

الثاني: وهذا الرأي نافع في حالة اعتبار نشط وأنشط لغتين ذواتي معنيين اثنين ـ هو أن هذه الآية الكريمة تسير من الوجهة الصوتية وفق الآية الأولى في السورة التي لها في العادة قدرة على توجيه الصياغة في الآية التالية أو الآيات وجهة معينة، ما دامت تلك الوجهة الصوتية تؤدي المعنى وتفي بالغرض على الوجه المطلوب. وأكبر دليل لنا على أن الحلية الصوتية في القرآن الكريم أمر مرغوب فيه، ما دامت هذه الحلية تضفي على المعنى غِلالة رقيقة شفافة من الأضواء والظلال، هو أن الآية الكريمة الأولى في السورة، لكون المعنى واضحاً تعدل عن طريقة التعبير التي تقول بها المعاجم. والنازعات إغراقاً إلى القول: والنازعات غرقا. إنّ الشيء ذاته يمكن أن يقال عن الآية الكريمة الثانية في السورة ﴿**والناشطات نشطا**﴾ التي كان العدول فيها شاملاً لكل من اسم الفاعل والمصدر. وفي الإمكان أن نسجّل الطريقة التي تقول بها المعاجم في الآيتين الكريمتين، وأن نقارن بين طريقة المعاجم هذه، وبين الصياغة في الآيتين الكريمتين، كي نتبين الكسب الجمالي في الآيات والخسارة الجمالية في حالة تطبيقنا لما تقول المعاجم تطبيقاً أعمى. وهذه هي طريقة المعاجم: والنازعات إغراقا. والمنشطات إنشاطا. وتبدو الخسارة الجمالية فادحة لو واصلنا بعد ذلك تلاوة الآيات في القسم. إنّا نتبين وقتئذٍ أن الهوة الصوتية سحيقة لا تطيقها الأذن الموسيقية بحال. وفي حالة تلاوة الآيات الكريمة ﴿**والنازعات غرقا**.

---

(١) البحر المحيط ٨/٤١٧.

(٢) ص ٦٩٨٣.

والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبرات أمرا﴾ فإنا نتبين في الانسياب الصوتيّ للآيات، مع وضوح المعنى، خير مفسر للعدول، الجائز في اللغة أصلاً، عن استعمال صيغة إلى أخرى، بحيث إنّه يمكن القول: بما أن أكثر الآيات، وفيها الآية الأولى، تبدأ باسم فاعل من فعل ثلاثي مجرد، وأن أكثرها قد أردف فيها اسم الفاعل بالمصدر، لذا حسن، مراعاة للمعنى الواضح، وتحقيقاً لظاهرة تلاؤم الأصوات، أن يكون اللجوء إلى الصيغ الصوتية المنسجمة مع الطابع العام للآيات. وقد تجلى ذلك بوضوح في الآية الأولى حيث تم العدول من «إغراقا» إلى «غرقا» وفي الآية الثانية بوضوح أشد، حيث تم العدول من اسم الفاعل والمصدر من الثلاثي المزيد إلى اسم الفاعل والمصدر من الثلاثي المجرد.

ولنا في حقيقة الأمر، بشأن الآية الأولى في السورة الكريمة كلام إضافي قال تعالى: ﴿**والنازعات غرقا**﴾ ذهب جمهور العلماء إلى أن الآية الكريمة يراد بها الملائكة التي تنزع بشدة وعنف أرواح الكافرين وتقتلعها اقتلاعاً. فكأن النزع جذب بشدة والنشط، في الآية الثانية في السورة، جذب برفق[1] جاء في اللسان[2]. نزع الشيء ينزعه نزعاً. اقتلعه فاقتلع. وقولهم: فلان في النزع أي في قلع الحياة. يقال: فلان ينزع نزعاً إذا كان في السياق عند الموت. وسبق أن نبهنا إلى أن الآية الكريمة عدلت عن المصدر إغراقاً إلى الاسم غرقاً. وآن لنا أن نبين الكلام الإضافيّ بشأن الآية الكريمة.

كان في إمكان الآية الكريمة أن تستعمل في عجزها مصدر الفعل الثلاثي الذي جاء منه اسم الفاعل في صدرها فتقول: والنازعات نزعا. ولكن لما كان الإغراق في النزع، كما سنتبين من النصوص، أبلغ في التعبير عن المعنى المراد،

---

(١) انظر تفسير القرطبي ص ٦٩٨٣.

(٢) «نزع».

في أولى آيات السورة الكريمة المكية، التي تخاطب بالدرجة الأولى كفار مكة القساة القلوب الغلاظ الأفئدة، لذا لجأت الآية الكريمة إلى الاسم الذي هو أقدر على تبيين المعنى المراد، مع اللجوء إلى الصيغة التي تلبي استعداد النفس لتلقى نغمة المصدر الثلاثي. فكان القول «غرقا» على وزن «نزعا» وبذلك تحققت أشياء عدة. لقد أرضت الآية الكريمة العقل، لأن الإغراق في النزع أبلغ من النزع مجرداً. كما أنها أشبعت النفس حيث إنَّها قد لبّت داعي هذه النفس باستعمال القالب الصوتي الذي تتشوق إليه. وأخيراً هي هيأت النفس لتقبل العدول في الآية التالية لاستعمال صيغتين صوتيتين قادرتين على إشباع النفس بجميل الصوت قدرتهما على إرضاء العقل بجليل المعنى.

فما معنى الإغراق في النزع؟ جاء في اللسان[1]: «وأغرق النبل وغرقه بلغ به غاية المد في القوس. وأغرق النازع في القوس أي استوفى مدها. والاستغراق الاستيعاب. وأغرق في الشيءجاوز الحد وأصله من نزع السهم. وفي التنزيل. والنازعات غرقا. قال الفراء: ذكر أنها الملائكة وأن النزع نزع الأنفس من صدور الكفار. وهو قولك: والنازعات إغراقا كما يغرق النازع في القوس. قال الأزهري: الغرق اسم أقيم مقام المصدر الحقيقي من أغرقت إغراقاً. ابن شميل، يقال: نزع في قوسه فأغرق».

ممّا سبق يتضح أنَّ حرصنا على أن نبدأ في تفسير هذه المجموعة من الآيات، من أوضح النقاط، قد اقتضى أن نبدأ من آخر آيات القسم. وقد فرض علينا الترابط المعنوي بين الآيات أن نأخذ في السير إلى الوراء، حتى انتهينا إلى أولى آيات القسم. وقد خرجنا بنتيجة مهمة هي أن رأي جمهور العلماء بشأن هذه الآيات هو الراجح، حيث إنَّها كلَّها تتحدث عن الملائكة، تلك الأجسام النورانية التي لا تعصي الله تعالى وتفعل ما تؤمر به. ومن مظاهر

---

(١) «غرق».

ذلك أنها تغرق في نزع أرواح الكافرين ولا تكتفي بنزعها نزعاً، واقتلاعها اقتلاعاً، وأنها تستل أرواح المؤمنين برفق. إنَّ كون النزع جذباً بشدة، ومن نصيب الكافرين، وكون النشط جذباً برفق، ومن نصيب المتقين، يتمشى مع المعنى الذي توحى به لفظة المثاني في قوله تعالى[1]: ﴿**الله نزّل الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء. ومن يضلل الله فما له من هادٍ**﴾ بمعنى أن القرآن الكريم يتحدث عن الشيء وضده، عن المعنى والذي يقابله بعد ذلك وهكذا.

ومن مظاهر فعل الملائكة ما تؤمر به أنها تسبح في نزولها وصعودها سبحاً. متصرفة بأمره تعالى في مجيئها وذهابها. وأنها تسبق إلى الإيمان والتصديق به، أو أنها تسبق بني آدم بالخير والعمل الصالح. ومن الجائز أن يكون المعنى، والله تعالى أعلم، مرتبطاً بالآية السابقة ومبنياً عليه من كونها في سباحتها نزولاً وصعوداً بأمر ربها تسبق إلى تنفيذ ما تؤمر به. ومن مظاهر فعل الملائكة، وفي ضوء ما أشارت إليه آخر آيات القسم، أنها تدبر بأمره عزّ وجلّ، الأمر من السماء إلى الأرض. وروى عطاء عن ابن عباس: فالمدبرات أمرا، الملائكة، وكلت بتدبير أحوال الأرض في الرياح والأمطار وغير ذلك[2] جبريل للوحي. وميكائيل للمطر. وإسرافيل للنفخ في الصور. وعزرائيل لقبض الأرواح[3].

والمختار في جواب القسم أن يكون محذوفاً وتقديره: لتبعثن لدلالة ما بعده عليه، قاله الفراء[4].

---

(١) سورة الزمر: ٢٣.

(٢) تفسير القرطبي ص ٦٩٨٥.

(٣) البحر المحيط ٨/٤١٩.

(٤) البحر المحيط ٨/٤٢٠، والجلالين وانظر تفسير الطبري ٣٠/٢١.

وفي إمكاننا، ببشأن هذا القسم، أن نسأل سؤالاً أخيراً هو: لماذا ابتدأ بعض الآيات بالواو وبعضها بالفاء؟ وحيث إنَّا عرفنا أن الآية الأولى بدأت بواو القسم، فمعنى هذا أن السؤال يريد أن يعرف الجواب عن اختصاص آيتين بعد ذلك بواو العطف وآيتين بفائه. ولا يخفى أن مجيء كل من الواو والفاء لحكمة. ومن الجائز أن نقول في محاولتنا المشاركة لإزالة ستار هذه الحكمة: إنّنا لو تأملنا المعاني التي تعرض آيات القسم الخمس، لانتهينا إلى أن بعض هذه المعاني كأنه قائم برأسه. وبعضها مرتبط بسابقه ومبني عليه. فلو أخذنا طريقة نزع الملائكة أرواح الكافرين، التي أشارت إليها الآية الأولى، لتبينا أنها غير طريقة سل الملائكة أرواح المؤمنين، مع أن العملية أساساً شيء واحد. والشيء نفسه يقال عن سباحة الملائكة من السماء ومن الأرض نزولاً وصعوداً. إنَّها عملية متميزة عن العمليتين السابقتين. قال تعالى: ﴿**والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا**﴾. أما السبق في الآية الرابعة والتدبير في الآية الخامسة، فإن الارتباط بين هذه العمليات قوي، بمثابة سلسلة تتألف من ثلاث حلقات. الأولى وهي السباحة بمثابة السبب والوسيلة والثانية وهي السبق، بمثابة الطريقة التي يتم بها الاستفادة من استخدام السبب والوسيلة، دليلاً على الاجتهاد التام والطاعة المطلقة. والثالثة وهي التدبير، بمثابة الهدف والغاية.

إنَّ مجيء الواو هنالك أشعر بتميز المرحلة الثانية عن الأولى والثالثة عن الأوليين. أما عملية السبق، فإنها لما كانت، في ضوء قول الجرجاني السابق، مرتبطة بعملية السباحة، ولما كانت عملية التدبير مرتبطة بالعمليتين السابقتين، لهذا جاءت الفاء دليلاً على هذا الترابط المعنوي وعلى التوالي الزمني أيضاً لأن الفاء، كما هو معروف تدل على الترتيب مع التعقيب. وهكذا يتبين أنه حينما كانت حبات المعنى المترابط، لصدوره من جهة واحدة، جائزة الاستقلال جاءت الواو المشعرة بذلك الجواز. وحينما كانت حبات المعنى جائزة الالتحام جاءت الفاء المشعرة بذلك الالتحام. والله تعالى أعلم بالمراد.

القسم الثاني

نفحةٌ راجفة وأخرى رادفة

القسم الثاني:

قال تعالى: ﴿يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة﴾.

حينما نتأمل هذا القسم يتبين لنا حظه الموفور من ظاهرة التلاؤم الصوتي، شأنه في ذلك شأن كل الذكر الحكيم. ويمكن أن نوجز ذلك فيما يلي:

إذا كنا لاحظنا من قبل أن بين آخر آيات القسم السابق وأولى آيات هذا القسم نوعاً من توافق صوتي، بين صدري الآيتين الكريمتين، وبذلك تهيأ التحول من نغمة صوتية تنفرد بها الآيات الأربع الأول في القسم الأول إلى نغمة أخرى هيأ لها صدر الآية الخامسة، فإن بين عجز الآيات الأربع التي يتكون منها القسم الثاني توافقاً صوتياً بعيد المدى. ويتمثل ذلك في كون الآيات كلها تنتهي في قالب واحد هو اسم الفاعل من الثلاثي راجفة. رادفة. واجفة. خاشعة. وقد نجم من ذلك توافق صوتي في نهايات الآيات. بل إنَّ الأمر لا يقف عند هذا الحد، إنما يتجاوزه إلى كون التوافق الصوتي يشمل أجزاءً من الكلمات السابقة على أسماء الفاعلين، مما نجم عنه التوافق في المقاطع الخمسة الأخيرة من الآيات الأربع. وهذه المقاطع الصوتية الخمسة يقابلها في الكلام ما يلي:

جُـفُ الـرّاجـفـة

عُـهَـا الـرّادفـة
ئِـذٍ واجـفـة
رُهَـا خـاشـعـة

ولعلنا لاحظنا أن التّوافق في الحروف كبير بين راجفة وواجفة في الآيتين الأولى والثالثة. وأنه يوجد قبل الهاء التي يصح السكوت عندها فاء في ثلاث آيات وعين في الآية الأخيرة خاصة، لأن المعنى هو الذي يوجه الألفاظ وجهته المعينة. هذا إلى أن انفراد الآية الأخيرة بالعين ربما أشعر بتحول المعنى وجهة أخرى. وذلك هو الذي حصل. خاصة وأن عجز الآيات التالية، يسير غالباً في ذات هذا القالب الصوتي على نحو ما يتبين بيسر من تلاوة الآيات حتى نهاية الآية الرابعة عشرة.

وحيث إنَّ السورة الكريمة مكية تتعامل بالدرجة الأولى مع كفار مكة الغلاظ الأفئدة القساة القلوب، وحيث إنَّها ابتدأت بداية تتمشى مع ما يستحق المخاطبون، ومع الجو العام للسورة ﴿**والنازعات غرقاً**﴾ فإنَّا مهيئون لأن نفهم، في القسم الثاني من السورة، المعاني التي يغلب ارتباطها بتلك الفئات، بأكثر من ارتباطها بسواها. قال تعالى: ﴿**يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة. قلوب يومئذٍ واجفة. أبصارها خاشعة**﴾ إنَّ الصيحتين من نصيب كل الخلائق، وفيهم البر والفاجر. وإنَّ وجيب القلوب وخشوع الأبصار، من نصيب كل من الأبرار والفجار. ولكن الجو العام العنيف الصاخب للسورة المكية، يجعل النفس أكثر استعداداً لأن تنظر إلى هذه المعاني من زاوية الكافرين المنكرين للبعث، مقررة إنكارهم واستهزاءهم وخطأهم. قال تعالى عن هؤلاء: ﴿**يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاماً نخرة. قالوا تلك إذن كرة خاسرة. فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة**﴾.

فما المراد بالآيتين الكريمتين المترابطتين معنوياً ﴿يوم ترجف الراجفة. تتبعها الرادفة﴾؟ ذهب الجمهور إلى أن المراد بالراجفة النفخة الأولى التي تميت كل

شيء بإذن الله تعالى، وبالرادفة النفخة الثانية، التي تحيي كل شيء بإذن الله تعالى وبينهما، كما جاء في الحديث أربعون سنة. «قال ابن عباس: هما النفختان الأولى والثانية. وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغير واحد. وعن مجاهد: أما الأولى وهي قوله جلّ وعلا: ﴿**يوم ترجف الراجفة،**﴾ فكقوله جلّت عظمته ﴿**يوم ترجف الأرض والجبال**﴾. والثانية، وهي الرادفة، فهي كقوله ﴿**وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة**﴾[1]

وأصل الرجفة الحركة. قال الله تعالى: ﴿**يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلا**﴾[2] «وليست الراجفة ههنا من الحركة فقط بل من قولهم: رجف الرعد يرجف رجفاً ورجيفا. أي أظهر الصوت والحركة. ومنه سميت الأراجيف لاضطراب الأصوات بها وإفاضة الناس فيها»[3] وهذه النفخة الأولى هي التي تميت الأحياء على حد قوله تعالى في سورة يس[4]: ﴿**ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين. ما ينظرون إلاَّ صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون. فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون**﴾. وقوله تعالى في سورة الزمر[5] ﴿**ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلاَّ من شاء الله**﴾ أي فمات من في السماوات ومن في الأرض إلاَّ من شاء الله من الحور والولدان وغيرهما. وحيث إنَّ الراجفة هي النفخة الأولى التي يرجف كل شيء بسببها أي يتزلزل، فهي بذلك وصفت بما يحدث بحدوثها[6] فهي من الإسناد المجازي[7].

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٤٦٦ وانظر البحر المحيط ٨/٤٢٠ وتفسير الطبري ٣٠/٢٠ وتفسير القرطبي ص ٦٩٨٦ والكشاف ٣/٣٠٨ وتفسير النيسابوري ٣٠/١٧.

(٢) سورة المزمل: ١٤.

(٣) تفسير القرطبي ص ٦٩٨٦.

(٤) الآيات: ٤٨ ـ ٥٠.

(٥) آية: ٦٨.

(٦) الكشاف ٣/٣٠٨ والجلالين.

(٧) تفسير النيسابوري ٣٠/١٧.

والرادفة رجفة أخرى تتبع الأولى فتضطرب الأرض لإحياء الموتى، كما اضطربت في الأولى لموت الأحياء[1] وإلى هذه الرادفة أشار قوله تعالى في سورة يس[2] ﴿**ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون. قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا، هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون. إن كانت إلاَّ صيحةً واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون. فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلاَّ ما كنتم تعملون**﴾ وقوله تعالى في سورة الزمر[3]: ﴿**ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون**﴾ وقوله[4]: ﴿إذا السماء انشقت﴾ ﴿فدكتا دكة واحدة﴾[5] كما قال مجاهد[6].

والعامل في يوم: اذكر مضمرة، أو لتبعثن المحذوف واليوم متسع تقع فيه النفختان، وهم يبعثون في بعض ذلك اليوم المتسع[7] وإنَّ نبيّ الله ﷺ كان يقول: بينهما أربعون. قال أصحابه: والله ما زادنا على ذلك[8] وجاء في صحيح مسلم[9] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ما بين النفختين أربعون. قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوماً؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون شهراً؟ قال أبيت. قالوا: أربعون سنة؟ قال أبيت[10] ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل. قال: وليس من الإنسان شيء إلاَّ يبلى إلاَّ عظماً واحداً وهو عَجْبُ الذَّنَب ومنه يركّب الخلق يوم القيامة.

---

(١) تفسير النيسابوري ١٧/٣٠.
(٢) آيات: ٥١ ـ ٥٤.
(٣) آية: ٦٨.
(٤) سورة الانشقاق: ١.
(٥) سورة الحاقّة: ١٤.
(٦) تفسير الطبري ٢١/٣٠.
(٧) البحر المحيط ٤٢٠/٨.
(٨) تفسير الطبري ٢١/٣٠.
(٩) ٩١/١٨.
(١٠) المراد أبيت أن أجزم أن المراد أربعون يوماً أو سنة أوشهراً. بل الذي أجزم به أنها أربعون مجملة، وقد جاءت مفسرة من رواية غيره في غير مسلم أربعون سنة. النووي.

وما هو موقف الخلائق تجاه النفختين وبالذات أخراهما؟ قال تعالى: ﴿**قلوب يومئذٍ واجفة. أبصارها خاشعة**﴾ ووجيب القلب ووجيفه أخوان[1] يقال: وجف القلب يجف وجيفاً إذا خفق، كما يقال: وجب يجب وجيباً. ومنه وجيف الفرس والناقة في العدو[2] ووجيف القلب يكون من الفزع ويكون من الإشفاق. ومنه قول قيس بن الخطيم:

إنَّ بني جَحْجَبا وأُسْرَتَهُمْ أكبادُنا من ورائهم تَجِفُ[3]

ومعنى الآيتين الكريمتين كما ذهب جمهور العلماء كالتالي: قلوب خلق من خلق الله تعالى، هم الكافرون بخاصة[4] واجفة خائفة مضطربة قلقة. يلوح ذلك من أبصار أصحاب تلك القلوب. إنَّها أبصار منكسرة خاشعة ذليلة «مما قد علاها من الكآبة والحزن، من الخوف والرعب الذي قد نزل بهم من عظيم هول ذلك اليوم[5] نظيره: خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة. والمعنى أبصار أصحابها، فحذف المضاف[6] فإن قلت كيف صح إضافة الأبصار إلى القلوب قلت: معناه أبصار أصحابها بدليل قوله يقولون[7] ورفع قلوب بالابتداء وهي نكرة لأنها تخصصت بقوله واجفة، التي تقع صفة لها. والجملة من المبتدأ والخبر في قوله أبصارها خاشعة تقع خبراً[8] ويجوز اعتبار «قلوب» مبتدأ رغم أنه نكرة لوجود المسوغ وهو الدلالة على الكثرة، وخاشعة خبر ونحن إلى هذا الرأي أميل لأن المعنى في الآية الكريمة كامل.

---

(١) الكشاف ٣/٣٠٩.
(٢) تفسير القرطبي ص ٦٩٨٧.
(٣) البحر المحيط ٨/٤٢٠.
(٤) تفسير القرطبي ص ٦٩٨٧.
(٥) تفسير الطبري ٣٠/٢٢.
(٦) تفسير القرطبي ص ٦٩٨٧.
(٧) الكشاف ٣/٣٠٩.
(٨) انظر البحر المحيط ٨/٤٢٠.

القسم الثالث
إنكارٌ للبعث

القسم الثالث:

قال تعالى: **﴿يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاماً نخرة. قالوا تلك إذن كرة خاسرة﴾**.

نود أوّل الأمر أن ننظر إلى هذه الآيات الكريمة من الزاوية الصوتية.

الآية الأولى في القسم، قال تعالى: **﴿يقولون أئنا لمردودون في الحافرة﴾** والتي تتكون من ستة عشر مقطعاً صوتياً، بينها وبين الآية السابقة عليها والتي تشكل الآية الأخيرة في القسم الثاني، تشابهاً صوتياً عجيباً، ففي حالة اعتبار القول في صدر الآية الكريمة «يقولون» خارجاً عن منطوق الكافرين، نكون بصدد نقطتين من التوافق الصوتي بارزتين.

الأولى: عجز الآية الأولى الطويلة هنا يوافق صوتياً الآية الأخيرة هناك، والتي تتكون من سبعة مقاطع. ولا ننسى أن القالب الصوتي للفاصلة في الآيتين الكريمتين واحد. وهذا هو التوافق الأول.

الآية السابقة **﴿أبصارها خاشعة﴾** ومقاطعها ٥٥ ـ ٥٥ ـ ٥ ما يوافق في الآية الأولى من قسم السّورة الثّالث هذه الآية السابقة «دودون في الحافرة» وهذه مقاطعها ٥٥ ـ ٥٥ ـ ٥.

الثانية: المقاطع الخمسة في الآية الأولى بين يدي هذه المقاطع السّبعة والتي تبدأ بأول كلام جرى على ألسنة الكافرين «أئنّا لمر» توافق في كل شيء ذات المقاطع الخمسة الأخيرة التي سبق أن قلنا إنَّ الآيات الأربع في القسم الثاني تتفق فيها. وهذه هي صورة المقاطع الخمسة ـ ٥٥ ـ ٥.

أما الآية الثانية، قال تعالى: ﴿**أئذا كنا عظاماً نخرة**﴾ فأول ما يلاحظ بشأنها أن ثمة قراءتين، «نخرة» و«ناخرة» وقد اختلفت آراء العلماء إزاء القراءة الراجحة. والذي شجع العلماء على الخوض في غمار المقارنة بين القراءتين هو أننا في حالة القراءة على هذه الصورة «نخرة» نكون، والله أعلم، قد راعينا بصورة أكبر طبيعة المعنى. وفي حالة القراءة على هذه الصورة «ناخرة» نكون، والله أعلم، قد راعينا رءوس الآي أو القالب الصوتي الذي تجيء فيه الفاصلة في الآيات السابقة واللاحقة، وتكون الآية الكريمة، بناء على ذلك، تبعاً لما سبق من آيات، ويتبعها هي ما لحقها حتى الآية الرابعة عشرة. ومن الذين ذهبوا إلى هذا الرأي الفراء، فقد جاء في اللسان[1] «قوله تعالى: ﴿**أئذا كنا عظاماً نخرة**﴾ وقرىء ناخرة. قال: وناخرة أجود الوجهين، لأن الآيات بالألف. ألا ترى أن ناخرة مع الحافرة والساهرة أشبه بمجيء التأويل قال: والناخرة والنخرة سواء في المعنى، بمنزلة الطامع والطمع». ومن الذين تبينوا أن نخرة، أقرب مراعاةً للمعنى و«ناخرة» أقرب مراعاة لرءوس الآي الطبري. يقول[2] «اختلف القراء في قراءة ذلك. فقرأ عامة قراء المدينة والحجاز والبصرة «نخرة» بمعنى بالية وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة «ناخرة» بألف. بمعنى أنها مجوفة تنخر الرياح في جوفها إذا مرت بها. وكان بعض أهل العلم بكلام العرب من الكوفيين يقول: الناخرة والنخرة سواء في المعنى، بمعنى الطامع والطمع والباخل والبخل.

---

(١) «نخر».

(٢) تفسير الطبري ٢٣/٣٠.

وأفصح اللغتين عندنا وأشهرهما عندنا «نخرة» بغير ألف، بمعنى بالية. غير أن رءوس الآي قبلها وبعدها جاءت بالألف فأعجب إليّ لذلك أن تلحق ناخرة بها ليتفق هو وسائر رءوس الآيات. لولا ذلك كان أعجب القراءتين إليّ حذف الألف منها».

وهكذا يتبين أنه في حالة قراءة «ناخرة» يكون ثمة موافقة صوتية بين هذه اللفظة التي تقع فاصلة وبين مجموعة كبيرة من الآيات السابقة واللاحقة، حتى نهاية الآية الرابعة عشرة كما مرَّ بنا. أما في حالة قراءة «نخرة» فإن التوافق الصوتي من جهة الفاصلة لا يكون موجوداً. هذا هو الذي يفهم من قول العلماء، وهذا هو الشيء الواضح الذي يدرك بداهة. ونحن في حقيقة الأمر أشد ميلاً لمراعاة المعنى، وبالتالي أحب إلى قلوبنا قراءة «نخرة» بمعنى فانية وبالية [1] لأن هذا هو المعنى الذي يريده كفار مكة، والمعروف أن العظم إنما يكون ناخراً تصفر الرياح إذا مرت به في مرحلة سابقة على المرحلة التالية التي يغدو فيها العظم رميماً متفتتاً تذروه الرياح. والمعروف أن صيغة فعل أبلغ من فاعل [2].

ومع أن حجتنا الأولى في ترجيح هذه القراءة أن المعنى يقتضيها، لأن القرآن الكريم يتحقق فيه خير ما في الشعر والنثر معاً. ومن خير ما في النثر حرية التعبير مراعاةً للمعنى. ومن خير ما في الشعر الموسيقي فإنَّا في حالة قراءة الآية في هذه الصورة: ﴿**أئذا كنا عظاماً نخرة**﴾ نحقق جمالاً صوتياً في الآية يرجح كفة هذه القراءة ذاتها، إذ نتبين أن بين صدر هذه الآية الكريمة وعجزها توافقاً صوتياً عجيباً، بين القول في صدرها «أئذا» ويتكون من ثلاثة مقاطع ـ ـ ٥ وبين القول في عجزها «نخرة» ويتكون من المقاطع الثلاثة

(١) تفسير الطبري ٢٣/٣٠.
(٢) الكشاف ٣٠٩/٣.

ذاتها ـ ـ ٥! وثمة عجيبة أخرى نود أن ننبه إليها هي أن هذه الآية الحادية عشرة في السورة الكريمة، هي الآية الأولى التي تبدأ بمقطعين قصيرين يليهما متوسط. وإن شئت قلت إنّها الآية الأولى في السورة الّتى يتوالى في صدرها ثلاثة أحرف متحركة يليها ساكن، وهذه هي ذات الصورة الصوتية التي جاءت فيها «نخرة» ولعلك الآن توافق على القول: إنّ انفراد هذه الآية الكريمة بابتدائها في هذه النغمة الصوتية الموافقة لصيغة أرجح القراءتين يعتبر قوة إضافية لهذه القراءة التي نعتقد أنها الراجحة. وكأن صدر الآية المتميز خير موطىء لعجزها المتميز ومن ثم كانت الآية الكريمة وفق القراءة الراجحة في اعتقادنا والله تعالى أعلم «أئـذا كنا عظاماً نخرة»(١).

وهذه هي الآية الكريمة الثالثة. قال تعالى: ﴿**قالوا تلك إذَنْ كرة خاسرة**﴾ وحيث إنّ الآية السابقة لها وضعها الخاص بها حيث إنّها أفردت فيها الفاصلة بين الآيات الأربع عشرة بصورة متميزة، وذلك في حالة القراءة «نخرة» وليس «ناخرة» فمن حقنا أن نعقد الرابطة الصوتية بين هذه الآية الكريمة الثالثة في القسم وبين الآية الأولى فيه ﴿**يقولون أئنا لمردودون في الحافرة**﴾ التي لها في العادة القدرة على التأثير في الآية التالية أو الآيات معنوياً وصوتياً. ويكفينا أن نقول بهذا الصدد إنّ بين الآيتين الكريمتين تشابهاً تاماً في السبعة المقاطع الأخيرة.

الآية الأولى ﴿**دودون في الحافرة**﴾ ٥٥ ـ ٥٥ ـ ٥.
الآية الثالثة ﴿**ذن كرة خاسرة**﴾ ٥٥ ـ ٥٥ ـ ٥.

ولا ننسى أن هذه المقاطع الصوتية السبعة هي ذات المقاطع التي قلنا إنّ

---

(١) مع أنّ الكلام المدوّن صحيح المعنى فقد تبيّـن لنا وتأكّد أنّه ليس من حقّنا ولا من حقّ غيرنا أن يرجّح قراءةً متواترةً عن المصطفى ﷺ على قراءةٍ أخرى متواترة، ومنتهى المسموح به تبيين معنى كلّ قراءة.

الآية الأخيرة في القسم الثاني: ﴿**أبصارها خاشعة**﴾ ٥٥ ـ ٥٥ ـ ٥ تتكون منها. ولا ننسى أيضاً أن الآية الأولى في هذا القسم تبدأ بالقول: ﴿**يقولون**﴾ وأن الآية الثالثة تبدأ بالقول: ﴿**قالوا**﴾ إنَّ الأصل اللغوي للمطلعين واحد. ولهذا دوره الصوتي والمعنوي كما لا يخفى مع أنهما خارجان بطبعهما عن دائرة الكلام الذي تفوه به الكافرون.

ونود الآن أن ننظر إلى الآيات الكريمة من الزاوية المعنوية. قال تعالى: ﴿**يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاماً نخرة. قالوا تلك إذن كرة خاسرة**﴾. إنَّ هذا الكلام قد جرى على ألسنة كفار مكة المنكرين للبعث: المستهزئين به. وأول ما نود الوقوف عنده لفظة الحافرة من قوله تعالى عنهم ﴿**يقولون أئنا لمردودون في الحافرة**﴾ فما معنى هذه اللفظة؟ لقد ذهب الجمهور إلى القول: إنَّ الحافرة بمعنى الحالة الأولى التي كانوا عليها قبل أن يموتوا. إنَّهم يستبعدون بل ينكرون ومن ثم يتعجبون أن تكون ثمة عودة أخرى إلى الحياة بعد أن تغدوا عظامهم رميماً، على نحو ما يفهم من الآية الثالثة. بل إنَّهم في الآية الثالثة يستهزئون من القول بأن ثمة عودة إلى الحياة، لأن ذلك لو صح فمعناه أنهم خاسرون يقول الطبري مثلاً[1] بشأن الآية الأولى: «يقول هؤلاء المكذبون بالبعث من مشركي قريش، إذا قيل لهم إنَّكم مبعوثون من بعد الموت: أئنّا لمردودون إلى حالنا الأولى قبل الممات فراجعون أحياء كما كنا قبل هلاكنا وقبل مماتنا. وهو من قولهم رجع فلان على حافرته إذا رجع من حيث جاء». ويقول القرطبي[2]: «أي يقول هؤلاء المكذبون المنكرون للبعث إذا قيل لهم إنَّكم تبعثون قالوا منكرين متعجبين: أنرد بعد موتنا إلى أول الأمر فنعود أحياء كما كنا قبل الموت»؟.

---

(١) تفسير الطبري ٢٢/٣٠.

(٢) تفسير القرطبيّ ص ٦٩٨٧.

ونحن من ناحيتنا نود أن نتتبع الخطوات التي مرت بها هذه اللفظة «الحافرة» حتى أصبحت تدل على العودة إلى الحياة الأولى كما هو الحال بشأن معنى اللفظة في الآية الكريمة. وعلى العودة إلى أول الأمر والحالة الأولى من قبل كما هو الحال في مثل قولهم: «التقى القوم فاقتتلوا عند الحافرة: أي عند أول ما التقوا»[1]. إنَّ الطبيعة الاشتقاقية للّغة العربيّة لها القدرة على توجيه اللّفظة معنويّاً في رحلتها التاريخيّة، ونحن من جانبنا نودّ أن نتتبّع هذه اللفظة «الحافرة» في رحلتها حتّى استعملت في الآية الكريمة بالمعنى الذي إليه أومأنا.

لقد تتبّعنا المراحل التي مرّت بها هذه اللفظة حتى أصبحت تدلّ في الآية الكريمة ـ كما ذهب إلى ذلك جمهور العلماء ـ على العودة إلى الحياة الأولى، وهذه هي المراحل أو الخطوات.

١ ـ إنَّ هذه اللفظة «الحافرة» وكذلك «الحافر» مأخوذتان أساساً من المثل: النّقد عند الحافرة، والمثل: النّقد عند الحافر[2] ومعنى المثل: النّقد عند الحافر، أي عند بيع ذات الحافر[3] وذي الحافر وصيّروه مثلاً. ومن قال: عند الحافرة، فإنّه جعل الحافرة في معنى الدّابّة نفسها، وكثر استعماله من غير ذكر الذّات، وألحقت به علامة التأنيث، إشعاراً بتسمية الذّات بها، أو هي فاعلةٌ من الحفر، لأنّ الفرس بشدّة دوسها تحفر الأرض[4] وليس بخافٍ أنّ لفظة الحافر المرتبطة بأحد المثلين تدلّ على عملية الحفر ذاتها المميّزة لكلّ ذي حافرٍ أثناء السّير.

---

(١) اللّسان «حفر».
(٢) انظر هنا اللّسان «حفر» ومجمع الأمثال للميداني المثل رقم ٤٢١٢ تحقيق محمّد محي الدّين عبد الحميد.
(٣) اللّسان «حفر».
(٤) انظر اللّسان «حفر».

وأصل المثل بصيغتيه في الخيل[1] وذلك أنَّ الخيل كانت أعزّ ما يباع فكانوا لا يبارحون من اشتراها حتى ينقد البائع[2] **وفي** التّهذيب: معناه إذا قال: قد بعتك، رجعت عليك بالثمن، وهما في المعنى واحد[3] وقال اللّيث: النّقد عند الحافر معناه: إذا اشتريته لن تبرح حتى تنقد، والعرب كانوا لنفاسة الفرس عندهم ونفاستهم بها لا يبيعونها إلاّ بالنّقد فقالوا المثل المذكور ومعناه عند أوّل كلمة[4] ومعناه إذا اشتريت الفرس لن تبرح حتّى تدفع الثّمن نقداً[5].

٢ ـ إذا كان هذا المثل بصيغتيه «النّقد عند الحافر» و«النّقد عند الحافرة» يرتبط ببيع الفرس أساساً العزيز على العرب الحبيب إلى قلوبهم، فينبغي في حالة الموافقة على بيع هذا الفرس الغالي أن يدفع ثمنه على الفور نقداً ودون أي تراخٍ، فإنَّ هذه الفوريّـة أو الأوّليّـة الملازمة للمثل جعلته يستعمل بشأن كل عزيزٍ على العرب يضطرّون إلى بيعه، وليس في حقّ الفرس وحده. جاء في مجمع الأمثال: «وأصل المثل في الخيل، ثمّ استعمل في غيرها» وجاء في لسان العرب[6]: «هذا هو الأصل ثمّ كثر حتّى استعمل في كلّ أوّليّة» وبهذا يتبين أنّ المثل بكامله وبصيغتيه أصبح يستعمل في غير ما وضع له أساساً وهو الخيل، بمعنى أن المثل تحوّل من مرحلة الخصوص إلى مرحلة العموم.

٣ ـ من الملاحظ أنَّ المثل في صيغتيه يتكوّن من ثلاثة ألفاظ وبسبب كثرة دورانه على الألسنة يبدو أنَّ المرحلة الثالثة التي مرَّ بها المثل تخفّفت من أول

---

(١) مجمع الأمثال واللّسان «حفر».
(٢) اللّسان «حفر».
(٣) اللّسان «حفر».
(٤) مجمع الأمثال واللّسان «حفر».
(٥) انظر اللّسان «حفر».
(٦) «حفر».

الألفاظ الثّلاثة «النّقد» وأصبح التعبير «عند الحافرة» و«عند الحافر» يدلّ على هذه الأوّليّة والفوريّة، ومن ذلك قولهم: فعل كذا عند الحافرة والحافر، والتقى القوم فاقتتلوا عند الحافرة، أي عند أول ما التقوا[1] جاء في اللسان[2] توضيحاً لهذه الصّيغة وتبييناً لهذه المرحلة: «ومن قال عند الحافرة فإنّه لـمّـا جعل الحافرة في معنى الدّابّة نفسها، وكثر استعماله من غير ذكر الذّات، ألحقت به علامة التأنيث، إشعاراً بتسمية الذّات بها، أو هي فاعلةٌ من الحفر، لأنّ الفرس بشدّة دوسها تحفر الأرض. قال: هذا هو الأصل ثمّ كثر حتى استعمل في كل أولية فقيل: رجع إلى حافره وحافرته وفعل كذا عند الحافرة والحافر» وفي حديث أبيّ قال: سألت النبيّ ﷺ عن التّوبة النّصوح، قال: النّدم على الذّنب حين يَفْرُطُ منك وتستغفر الله بندامتك عند الحافر لا تعود إليه أبداً. والمعنى يتخيّر الندامة والاستغفار عند مواقعة الذنب من غير تأخير، لأنَّ التأخير من الإصرار، والباء في بندامته بمعنى مع، أو الاستعانة، أي تطلب مغفرة الله بأن تندم، والواو في وتستغفر للحال أو للعطف على معنى النّدم[3] وفي حديث سراقة قال: يا رسول الله، أرأيت أعمالنا التي نعمل، أمؤاخذون بها عند الحافرة، خيرٌ فخير أو شرٌ فشرّ، أو شيءٌ سبقت به المقادير وجفّت به الأقلام[4].

وهكذا يتبيّن أنَّ الفورية مرتبطة بهذا الجزء من المثل.

٤ ـ وإذا كانت المرحلة السّابقة قد تخلصت من صدر المثل الذي يشكل الثلث: «النّقد» فإنّ المرحلة التالية تخلّصت من ثلثي المثل تقريباً، إذ لم تبق إلاّ على لفظي الحافرة والحافر. والمعروف أنَّ عملية الحفر في الأرض ملازمةٌ لهذه اللّفظة «الحافرة» وقد عرفنا أنها تطلق على الفرس الحافرة للأرض، كما أنَّها وراء

---

(١) انظر اللسان «حفر».

(٢) اللّسان «حفر».

(٣) اللّسان «حفر».

(٤) اللّسان «حفر».

ذلك تطلق على الأرض ذاتها على نحو قولهم: ماء دافق بمعنى مدفوق. يقول الميداني[1]: «والحافرة: الأرض التي حفرها الفرس بقوائمه، فاعلة بمعنى مفعولة» وإليك هذه الاستعمالات للفظة الحافرة، التي تتوّج باستعمال القرآن الكريم لها دليلاً على الحياة الأولى: «والعرب تقول: أتيت فلاناً ثمّ رجعت على حافرتي، أي طريقي الذي أصعدت فيه خاصّة. فإن رجع على غيره لم يقل ذلك، وفي التّهذيب: أي رجعت من حيث جئت. ورجع على حافرته، أي الطريق الذي جاء منه[2] ولعلّنا لاحظنا دور حفر الأرض في أثناء المشي بشأن هذا الاستعمل كي يتسنّى العودة من الطريق ذاته، والحافرة العودة في الشيء حتّى يردّ آخره على أوّله، وفي الحديث: إنّ هذا الأمر لا يترك على حاله حتّى يردّ على حافرته أي على أوّل تأسيسه[3].

وانظر بعد ذلك إلى استعمال الآية الكريمة للفظ الحافرة على لسان كفّار مكّة في قوله تعالى: ﴿**يقولون أئنا لمردودون في الحافرة**﴾ قال ابن الأعرابي: في الحافرة أي في الدّنيا كما كنّا وأنشد ابن الأعرابي:

أحافرةٌ على صلعٍ وشيبٍ؟ معاذ الله من سفهٍ وعار

يقول: أأرجع إلى ما كنت عليه في شبابي وأمري الأوّل من الغزل والصّبا بعدما شبت وصَلِعْت؟ وقال الفرّاء في قوله تعالى: «في الحافرة» معناه أئنّا لمردودون إلى أمرنا الأوّل أي الحياة أي في الخلق الأوّل بعدما نموت[4].

ولعلّنا لاحظنا في استعمال لفظة الحافرة في الآية الكريمة إنكار كفّار مكّة العودة إلى الحياة مرّةً أخرى بعد الوفاة والبِلى.

---

(١) مجمع الأمثال.
(٢) اللّسان «حفر».
(٣) اللّسان «حفر».
(٤) اللّسان «حفر».

ولعلّنا لاحظنا علاقة لفظة الحافرة الوثيقة بالمثل أساساً، والمراحل التي مرت بها لفظة «الحافرة» ولفظة «الحافر» التي تعتبر بحقّ عماد المثل بدليل أنّها الجزء الباقي منه حتى بعد التخلّص من ثلثيه الأوّلين كما يتبيّن المراحل المعنوية التي تقلّبت فيها كلٌّ من اللفظتين حتّى انتهتا إلى هذه المرحلة المعنويّة الجديدة، ويتبيّن وراء ذلك أن الطّبيعة الاشتقاقية للّغة العربية لها دورها في توجيه اللّفظتين في رحلتهما هذه الوجهة المعيّنة، كما يتبيّن أنّ دراسة حياة العرب قبل الإسلام جانبٌ مهمٌ في محاولة فهم كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

في ضوء ما سبق نحن نستطيع أن نقبل رأي الجمهور الذي ذهب إلى أن معنى الآية الكريمة أن كفار مكة ينكرون ويتعجبون في قولهم هذا من العودة مرة أخرى إلى الحياة بعد الموت. قال تعالى: ﴿**يقولون أئنا لمردودون في الحافرة!**﴾.

وما معنى الآية الكريمة الثانية التي تجيء على ألسنة الكافرين المنكرين للبعث: ﴿**أئذا كنا عظاماً نخرة؟**﴾ معناها كما ذهب إلى ذلك جمهور العلماء أئذا متنا وغدت عظامنا، وهي قوام أجسامنا، رميماً، وصارت بالية متفتتة تذروها الرياح، نعود إلى الحياة مرة أخرى؟ إنَّ هذا لا نصدقه ولا نؤمن به. ويلاحظ أن هؤلاء الكافرين يذكرون العظام قوام الأبدان، التي يعتبر بلاها رمزاً لبلى كل ما يقل عنها في مجال المقاومة بعد الموت. والمعروف أن العظم يمكن أن يعمر بعد الموت سنوات وسنوات. وبلاه دليل على تقادم العهد بموت صاحبه. كما يلاحظ لجوء الكافرين إلى استفهامين في الآيتين الكريمتين وإلى استعمال لام التوكيد في الأولى. وكل ذلك دليل أكيد على إنكارهم للبعث بعد الموت وعدم قدرتهم على تصور عودتهم إلى الحياة مرة أخرى.

وسبق أن أشرنا إلى أن ثمة قراءتين «نخرة» و«ناخرة» وحيث إنَّ صيغة

فعل أبلغ من فاعل[1] وحيث إنّ مراد الكافرين الإغراق في البعد، وحيث إنّ نخرة بمعنى بالية متفتتة، يقال نخر العظم فهو نخر، إذا بَلِي ورم[2] فهي إذَنْ أكثر دلالة على قصد كفار مكة من صيغة ناخرة، أي فارغة يجيء منها عند هبوب الريح كالنخير[3] والنخير: صوت الأنف، نخر الإنسان والحمار والفرس بأنفه ينخر وينخر (بالكسر والضم) نخيراً مد الصوت والنفس في خياشيمه[4] وعلى ذلك فصيغة نخرة أدل على قدم عمر العظم. إنّ قراءة الجمهور «نخرة» والله تعالى أعلم بالمراد.

وما معنى الآية الكريمة الثالثة؟ قال تعالى: ﴿**قالوا تلك إذَنْ كرة خاسرة**﴾ إنّ ابتداء الآية الكريمة بالقول: ﴿**قالوا**﴾ وابتداء الأولى بالقول ﴿**يقولون**﴾ يمكن أن يفهم منه أن للكافرين هنا قصداً جديداً، إضافة إلى قصدهم السابق.. وإلاّ فقد كان في إمكان السياق الاستغناء عن القول «قالوا» أمّا هذا القصد الجديد فيمكن أن يكون ما ذهب إليه الزمخشري[5] من أنه استهزاء منهم. والمعنى أن هؤلاء الكافرين يقولون: إذا صحّ أننا عدنا إلى الحياة مرة أخرى فمعنى هذا أنّنا ولا شك خاسرون، لأن مصيرنا بعد البعث، كما يزعم محمد، إلى النار وبئس المصير! إذَنْ لا شكّ أنّ كرتنا كرة ذات خسران علينا لأنا الآن مكذبون بكل ذلك. وحيث إنّ هؤلاء الكافرين لا يؤمنون بالبعث أساساً، ومن باب أولى ما يتعلق به، فمعنى هذا أنهم في هذا القول ﴿تلك إذنْ كرة خاسرة﴾ يستهزئون بالبعث والحساب، بالثواب والعقاب. ولعلك تريد أن تضيف بأن القول في الآية «تلك» وليس هذه مثلاً، قوة إضافية لاستبعادهم وإنكارهم واستهزائهم. وهذا صحيح.

---

(١) الكشاف ٣/٣٠٩.
(٢) اللسان «نخر».
(٣) اللسان «نخر».
(٤) اللسان «نخر».
(٥) الكشاف ٣/٣٠٩.

القسم الرابع
زجرةٌ واحدة

القسم الرابع:

قال تعالى: ﴿فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة﴾.

إنَّ كفّـار مكة ومن شاكلهم، ينكرون أن يكون بعد الموت حياة أخرى. وإذا كان هذا الإنكار يتعلق في بعض جوانبه باعتقادهم ـ حمقاً وطيشاً ـ أنه ليس ثمة القوة القادرة على إعادة الحياة إليهم بعد البلي من جديد، فإن الآيتين الكريمتين تصححان هذه المفاهيم الخاطئة. فهؤلاء الكافرون الذين ينكرون أن تكون ثمة حياة أخرى وقوة قادرة على إعادة الحياة للأموات ينبّهون في عنف إلى أنّ ما اعتقدوه مستحيلاً، يتساوى هو وسواه في حقّ الذات الإلهية التي تقول للشيء كن فيكون. ومن ذلك إعادة الحياة إلى الخلائق مرة أخرى. إنَّ هذه الإعادة لا تحتاج إلى أكثر من زجرة واحدة لا غير، لواحد من جند الله تعالى، أودع فيه الله عزّ وجلّ هذه القدرة، هو الملك إسرافيل، فيما يقال، حينما ينفخ في الصور إيذاناً بالبعث. إنَّ الإحياء هنا يتمّ بإرادة الله تعالى القادر على كل شيء والقادر فيما سبق على وضع حد لحياة الأفراد مؤمنين ومشركين على نحو ما أشار القسم الأول من السورة، وعلى وضع حد للحياة فوق هذه الأرض على نحو ما أشار القسم الثاني من السورة. وها نحن أولاء أمام الزجرة الواحدة التي نستطيع أن نفهم أن المراد بها النفخة الثانية التي أشار إليها القسم الثاني أيضاً.

وتأمل اللفظة العنيفة «زجرة» بمعنى صيحة عنيفة والتي تتمشى مع طبيعة عنف الكافرين، الغلاظ الأفئدة القساة الأكباد. وتأمل الصفة «واحدة» إنَّها صيحة واحدة لا تكرار فيها ولا مثنوية فإذا الناس جميعاً قيام ينظرون.

وتقفز الآية الكريمة الثانية بالناس إلى كونهم خلقاً سوياً فوق ظهر الأرض بعد أن كانوا أمواتاً في باطنها، وبعد أن مكثوا ما شاء الله تعالى لهم بين النفختين، وإن لفظة الساهرة، بالإضافة إلى كونها في ذات الصيغة الصوتية الغالبة على أواخر الآيات السابقة، وكونها تنتهي في ذات الأحرف الغالبة على القسم السابق، فإنَّها بدلالتها على السهر، بمعنى عدم النّوم مطلقاً، بإرادة القادر على كل شيء، الذي أودع فيها هذه الخاصية، قادرة على تعميق معنى العجز وضعف الحيلة لدى البشر كافة، وبخاصة الكافرون منهم. لقد شاء الله تعالى للناس أن يموتوا ويتحولوا تراباً وعظاماً في باطن هذه الأرض، بينما هذه الأرض الجماد، لا تعرف، بإرادة الله، النوم، وهو الموت الأصغر، فضلاً عن النوم الأكبر، أعني الموت، الذي يجيده الإنسان. إنَّ الأولى بالإنسان أن يصحّح من مواقفه الخاطئة، مستفيداً من عقله الذي منّ الله تعالى عليه به، ذلك العقل الذي يستطيع أن يصحّح موقف صاحبه، حينما يستعمله استعمالاً صحيحاً، إذ ينتهي إلى أنّ القادر على إيجاد الإنسان من العدم، قادرٌ على إعادة الحياة إليه مرَّةً أخرى، والذي سبق أن تنبّه إلى أن هذه الأرض التي سيؤول إليها، لا تعرف النوم فضلاً عما سواه، بدليل أن الإنسان نفسه لاحظ هذه الصفة البارزة في الأرض فخلعها عليها اسماً من أسمائها، فقال عن الأرض «الساهرة» إنَّ الإنسان إذا كان ينام وقتاً من الأوقات، فإن غير الإنسان، مما يدب فوق ظهر الأرض أو يخرج من بطنها غير نائم، وهذا هو السبب الذي من أجله سمى العربي الأرض ساهرة على حد قوله هو «لعين الماء ساهرة إذا كانت جارية. وفي الحديث: خير المال عين ساهرة لعين نائمة، أي عين ماء تجري

ليلاً ونهاراً وصاحبها نائم. فجعل دوام جريها سهراً لها»[1] وفي ضدها نائمة[2].

إن العقل حينما يحسن الإنسان استعماله، يستطيع أن ينتهي إلى أن الأرض إنما كانت ساهرة، بقدرة القادر على كل شيء، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، بينما هو من أخص صفاته أن ينام وأن يموت. كما يستطيع أن ينتهي إلى أن هذه الساهرة القادرة بإذنه تعالى على إنبات النبات مثلاً، قادرة يوم القيامة، بإذنه تعالى، على إنبات الأناسي، كما ينبت البقل، على نحو ما جاء في الحديث الذي مر بنا من قبل[3].

مما سبق يتبين أن لفظة الساهرة في الآية، قادرة على حمل الإنسان على التفكير في هذه الأرض التي السهر من سماتها ليس في هذه الحياة فقط، بل ويوم القيامة أيضاً. وإذا كان من سمات هذه الأرض الجماد، السهر، فهل يحقّ للإنسان، الذي كرّمه الله تعالى بالعقل، أن يكون من سماته الغفلة والوسن؟ لا ثم لا.

«فإن قلت: بما تعلق قوله: فإنّما هي زجرة واحدة؟ قلت بمحذوف معناه: لا تستصعبوها فإنما هي زجرة واحدة»[4].

وثمة أشياء عدة ينبغي أن تضاف. منها التشابه الصوتي بين هاتين الآيتين الكريمتين وبين ما سبقها من آيات. إنَّ بين هذه الآية الكريمة: ﴿**فإنما هي زجرة واحدة**﴾ وبين الآية السابقة عليها: ﴿**قالوا تلك إذن كرة خاسرة**﴾ تشابهاً في المقاطع الستة الأخيرة.

---

(١) اللسان «سهر».
(٢) تفسير القرطبي ص ٦٩٩١ والكشاف ٣/٣٠٩.
(٣) الحديث في صحيح مسلم ١٨/٩١.
(٤) الكشاف ٣/٣٠٩.

زجرة واحدة	٥ ـ ٥٥ ـ ٥
كرة خاسرة	٥ ـ ٥٥ ـ ٥

وإذا كانت الآية الكريمة قد انتهت بحرف الدال «واحدة» خلافاً لما سبقها ولحق بها، فلأن المعاني هي التي توجه الألفاظ، وليس العكس. هذا إلى أن لفظة «واحدة» في ذات الصيغة الغالبة على أواخر الآيات.

فإذا تحولنا إلى الآية التالية: ﴿**فإذا هم بالساهرة**﴾ تبينا أن «ساهرة» في ذات القالب الصوتي الغالب على أواخر الآيات. وتبقى وراء ذلك ملاحظة طريفة، هي أن كل المقاطع الباقية جاءت موافقة تماماً لذات المقاطع المقابلة لها، في صدر الآية الثانية من القسم الثالث: ﴿**أئذا كنا عظاماً نخرة**﴾ وإذا كنا قد لاحظنا من قبل أن هذه الآية: ﴿**أئذا كنا عظاماً نخرة**﴾ أول آية تبدأ بمقطعين قصيرين، مهّدا لمجيء الفاصلة فيها متميزة بمقطعين قصيرين، على غرار صدر الآية، ففي إمكاننا أن نضيف إلى ما سبق أن هذه الآية تعتبر تمهيداً لمجيء صدر آية أخرى على غرارها، وهذه الآية هي التي نحن بصددها. قال تعالى: ﴿**فإذا هم بالساهرة**﴾.

وهكذا يتبين أن ظاهرة التلاؤم الصوتي موجودة في كل آي الذكر الحكيم، في أعلى الصور التي يستطيع أن يحققها كلام نثري، من أهم مميزاته الحرية المطلقة الموزونة بمعيار العقل المصبوغة بتدفق النفس.

القسم الخامس
موسى عليه السّلام وفرعون

القسم الخامس:

قال تعالى: ﴿هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. إذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾.

ما أشد تعنت كفار مكة، وما أشد الصعاب التي صادفها المصطفى ﷺ والفئة المؤمنة القليلة العدد آنذاك، من أولئك المنكرين للبعث المبغضين لهذا الدين الذي يأمرهم بعبادة الله تعالى ويدعوهم إلى كل خير وينهاهم عن كل شر. وما أشد حاجة المصطفى ﷺ في كل حين لأن تتجدد التسلية من السماء له، ويتوالى تثبيت فؤاده الكريم ﷺ. ومن هنا كان قص القرآن الكريم على الرسول العظيم، ما يثبت فؤاده عليه الصلاة والسلام من أنباء الرسل الكرام عليهم صلوات الله تعالى وسلامه. وحيث إنَّ أوجه الشبه كثيرة بين ملابسات الدعوتين، المحمدية والموسوية. لذا كان في العديد من المواضع في القرآن الكريم، سرد لجوانب من ملابسات الدعوة الموسوية الموافقة لطبيعة القضايا التي يعرض لها السياق، ومن هذه المواضع القسم الذي نحن بصدده من سورة النازعات. إنَّ كفار مكة، كما صورتهم السورة الكريمة، ينكرون البعث،

ويستهزئون بالعقاب وبالثواب ضمناً. وحيث إنَّهم مخدوعون بقوتهم التي سلطوها على المؤمنين، وحيث إنَّ المصطفى ﷺ حريص كل الحرص، على أن يهجروا الطريق الخاطىء إلى الطريق المستقيم، فهم بحاجة إذن إلى أن يأخذوا العظة والعبرة حاجته ﷺ إلى التسلية وتثبيت الفؤاد، لكل ذلك اقتصر ما قصته السورة الكريمة هنا عن موسى عليه السلام، على ما جرى بينه عليه السلام وبين فرعون مصر، الذي كان يفوق كفار مكة قوة وبطشاً، سفهاً وحمقاً، مبينة أخذه عزّ وجلّ أخذ عزيز مقتدر، بعد أن أصر على الضلال الذي هو سادر فيه، وظن إمهال الله تعالى له اهمالاً. إنَّ كفار مكة، خليق بهم أن يستفيدوا من مثل هذا البلاغ، وإلاَّ فإن النتيجة توشك أن تكون مشابهة، لتشابه الطريقين في الخطأ.

فمع الآية الكريمة الأولى. قال تعالى: ﴿**هل أتاك حديث موسى**﴾. يرتبط بهذه الآية الكريمة مجموعة من المسائل.. وسبق أن أشرنا إلى الحكمة من اختيار القرآن الكريم جوانب من قصة موسى عليه السلام مع فرعون، موافقة لما يقتضيه السياق، ففي ذلك أبلغ تسلية له عليه الصلاة والسلام وتثبيت ويبقى بعد ذلك القول: إنَّ الطريقة التي يتم بها ذلك غاية في اللطف. فالمعروف أن الاستفهام في مثل هذه الحال، مظهر من مظاهر حب الله تعالى لهذا النبي الكريم، إذ يشعر الرسول العظيم، أنه هو المعنيّ الأول بمثل هذا الحديث عما جرى لنبي، من أكبر أنبياء بني إسرائيل، ومن أكثرهم معجزة، مع قومه المكذبين وتأمل جملة «أتى» التي يؤثرها القرآن الكريم في مثل هذه المناسبة، على ما عداها من جمل صالحة. وقد أوحى إلينا القرآن الكريم، بالفرق الدقيق، بين جملة «أتى» مثلاً، وبين الجملة الأخرى صنوها «جاء» وذلك في مثل قوله تعالى من سورة الأعراف[1] بشأن موسى عليه السلام وقومه: ﴿**قال موسى**

---

(١) آية ١٢٨، ١٢٩.

لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين. قالوا أوذينا من قبل أن يأتينا ومن بعد ما جئتنا. قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ إنَّ السياق أفهم أن جملة «أتى» تدل على الزمن البعيد، و«جاء» على الزمن القريب. في ضوء ذلك نستطيع أن نقول: كأن الآية الكريمة: ﴿هل أتاك حديث موسى﴾ تريد أن تقول للرسول ﷺ: إنَّا اصطفيناك أيها الرسول الكريم: بأن أوحينا إليك بأدق الأحاديث التي جرت في العصور السحيقة، والتي لا تعرفها أنت ولا قومك من قبل هذا. وهذا الإيحاء من مظاهر نعم الله تعالى عليك واصطفائه لك وإشعارك بأنه عزّ وجلّ معك وناصرك في كل أحوالك ولن يتخلى عنك طرفة عين. وإنّ خير مسعفٍ لنا على هذا الفهم النظرة المقارنة بين جملة أتى وبين لفظة حديث بعدها في الآية مباشرة. إنَّ من متعلقات لفظة حديث، في استعمالنا العادي لها، المجيء بدقائق الأمور والأحوال، وخفيات الملابسات والأقوال. وكل ذلك يرتبط عادة بالزمن القريب جداً. فكأن مثل هذا الخطاب للمصطفى ﷺ: ﴿هل أتاك حديث موسى﴾ بسبب قدرته الفائقة على جعل الماضي بمنزلة الحاضر، يجعله عليه الصلاة والسلام يحس في أعماقه بأن ما صادفه واحد من أولى العزم من الرسل، بمثابة ما ترى عيناه وتسمع أذناه. إنَّ مثل هذا الإحساس قوة إضافية إلى قوة التسلية الطبيعية وتثبيت الفؤاد. ولا تقف لفظة حديث في الآية الكريمة عند قدرتها على جمع الأزمنة في ظرف، وسحبها إلى الحاضر في لطف. إنما تتجاوز ذلك إلى كونها من الوجهة الصوتية أنسب لفظة تحتل مثل هذا الموضع بالقياس إلى لفظة «نبأ» مثلاً. لماذا؟ لأنها على وزن جملة «أتاك» السابقة عليها، ولأنها تشتمل على مقطع متوسط يشتمل على حرف مد يتيح للنفس أن يمتد، فيحدث التجانس مع حروف المد في الآية الكريمة، بما في ذلك الألف المقصورة الأخيرة من لفظة «موسى»، كما يحدث التجانس مع الطابع الغالب على هذه الآيات، من جنوحها بصفة عامة إلى

الطول النسبي، ومن أهم وسائل تعميق هذا الطول، حروف المد. ويلاحظ أن حظ الآيات موفور من المقاطع المتوسطة، التي يستغرق نطق الواحد منها على وجه التقريب، ذات الوقت الذي يستغرقه نطق مقطعين قصيرين. ففي هذا القسم مثلاً تتكون الآية الأولى من تسعة مقاطع منها خمسة متوسطة. والثانية من ستة عشر مقطعاً منها عشرة متوسطة والثالثة من اثني عشر مقطعاً منها ثمانية متوسطة. والرابعة من أحد عشر مقطعاً منها ستة متوسطة، والخامسة من ثلاثة عشر مقطعاً منها خمسة متوسطة. والسادسة من تسعة مقاطع منها ستة متوسطة. والسابعة من سبعة مقاطع منها اثنان متوسّطان. والثامنة من سبعة مقاطع منها أربعة متوسّطة. والتّاسعة من سبعة مقاطع منها اثنان متوسّطان. والعاشرة من أحد عشر مقطعاً منها خمسة متوسّطة. والحادية عشرة من سبعة عشر مقطعاً منها ثمانية متوسطة. والثانية عشرة من أربعة عشر مقطعاً منها ثمانية متوسطة.

وإنما قلّت حروف المد وارتفع عدد المقاطع القصيرة، في الآيات القصار التي تصور استكبار فرعون وطغيانه ﴿**فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى**﴾.

وهذه هي الآية الكريمة الثانية. قال تعالى: ﴿**إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى**﴾ إنَّ هذه الآية الكريمة أكثر آيات هذا القسم عدد مقاطع وأكثرها عدد مقاطع متوسطة أيضاً. وبالإضافة إلى كون الفاصلة في الآية، على غرار ما سبقها ولحق بها، فإنه يبدو للوهلة الأولى أن القول في الآية: ﴿**بالواد المقدس**﴾ يتفق صوتياً مع القول: ﴿**إذ ناداه ربه**﴾ وقد لحق بلفظ الرب ضمير المفرد الغائب الذي يتكون منه ومن إشباع الضمة، مقطع متوسط، له أكبر الدور في خدمة الحروف الممدودة في الآية الكريمة، تلك التي تتيح للنفس أن يمتد فيلبي بذلك حاجة النفس الهادئة وهي تسرد بعض جوانب حدث متعدد الزوايا مختلف الجوانب.

وإنَّ جملة «نادى» في الآية توحي بالبعد الضروري الذي فهمه موسى عليه السلام حينما ناداه الحق جلّ وعلا، تمشياً مع قوله تعالى في سورة الشورى[1] ﴿**وما كان لبشر أن يكلمه الله إلاَّ وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء، إنَّه عليٌّ حكيم**﴾. وتأمل لفظة الرب، المذكّرة بنعم الله تعالى على عباده، والتي تستعمل عادة حينما يكون الجو عابقاً بشذى الرضا والحنان. ويعتبر الضمير العائد على موسى عليه السلام في القول «إذ ناداه ربه» قوة لشذا الرضا والحبور، بحيث يصح للمصطفى ﷺ، أن يمتلىء قلبه ببرد اليقين، وأن يفهم أن نصيبه من النجاح موفور عقب الصراع بينه عليه الصلاة والسلام وبين قومه الكافرين، على غرار نصيب موسى عليه السلام في صراعه مع قومه.

وإذا كانت لفظة «حديث» في الآية الأولى قد أوضحت مدلول جملة «أتى» بسبب الاختلاف بينهما أصلاً في الدلالة على القرب والبعد، وبراعة السياق في جعل البعيد كأنه قريب، فإن لفظة رب المتصل بها ضمير الغائب في الآية الثانية قد قربت مدلول النداء بوادي طوى المطهر بالشام[2] عند الطور[3] وحددت بعده، إنَّه من القرب بحيث إنَّه جاز أن يستغني بين يدي الآية الثالثة عن ذكر القول الدال على القرب أساساً. هذا بالإضافة إلى أن القول والنداء من جنس واحد. قال تعالى: ﴿**اذهب إلى فرعون إنه طغى**﴾. إنَّ فرعون يعتبر رمزاً للطغيان، بمعنى مجاوزة الحد في العصيان. وإنَّ اسمه يقذف إلى الذهن تواً بهذه الصفة السيئة. وحينما تجيء جملة طغى الموافقة صوتياً لفواصل آيات القسم، يكون ثمة توافق بين المعنى والمبنى كما يقولون.

ولما كانت هذه السورة الكريمة قصيرة نسبياً، وقد عرضت، بقصد

---

(١) آية: ٥١.

(٢) القاموس «طوى».

(٣) معجم البلدان «طوى».

العبرة، لقوم موسى عليه السلام، فإنها مراعاة للهدف من السورة، وهو العظة والاعتبار، قد عرضت لأهم معالم البغي والطغيان، التي عرف بها فرعون. كما عرضت لمصيره بعد إمهال الله تعالى له وقيام الحجة عليه، كي تتحقق العبرة، وهي الهدف من سرد القصة. قال تعالى: ﴿**اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى**﴾.

والذي يروعنا بشأن موافقة الفواصل للمعنى، هو أن الآيات الكريمة في القسم، تعرض لفكرتين بالذات، يوجد بين مبنى كل منهما ومعناها توافق تام لإحداث أجمل الآثار في النفس. وتفسير ذلك أنه إذا كانت ثانية الفكرتين يتاح للنفس معها أن يمتد أثناء النطق بها بسبب الفاصلة، كما في قوله تعالى: ﴿**تزكى، فتخشى، وعصى، يسعى، فنادى**﴾ فإن هذه الثواني من الأفكار أو الأعجاز من الآيات كلها تدل على طبيعة العمل القابل لأن يمتد به صاحبه، تماماً كما يمتد الصوت أثناء نطق الأفعال المعتلة بسبب اشتمال آخرها على الألف الواقعة فاصلة ونطقاً «الكبرى».

إنَّ في إمكاننا أن نلقي نظرة مقارنة بين صدور الآيات التالية وأعجازها كي نتبين حقيقة ذلك. قال تعالى: ﴿**فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى**﴾.

إنَّ قوله تعالى: ﴿**هل لك إلى أن تزكى**﴾ يتكون من فكرتين. الأولى يشملها القول: «هل لك». وهو خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: هل لك حاجة أو رغبة. والثانية يشملها القول: «إلى أن تزكى» ومعناها تتطهر من الشرك، وتعبد الله تعالى وحده، وتفعل ما يأمرك عزّوجلّ به. وتجتنب ما نهاك عنه . ولا

يخفى أن ثانية الفكرتين تحتاج إلى المجهود الأكبر والزمن الأطول.

وإن قوله تعالى: ﴿**وأهديك إلى ربك فتخشى**﴾ يتكون من فكرتين. الأولى يشملها القول: ﴿وأهديك إلى ربك﴾ ومعروف أن دور الهادي أو الدليل محدود. والثانية يشملها القول: «فتخشى» ومعنى الآية الكريمة: وأهديك إلى سبيل ربك فتخشى الله تعالى في السر والعلن ولا حدود لخشية الله تعالى لأنها دليل على التقوى والورع اللذين ملآ قلب المسلم لله رب العالمين العارف ما له وما عليه. قال تعالى[1]: ﴿**إنّما يخشى الله من عباده العلماء**﴾ لقد كان فرعون، لو قدر الله تعالى له الهداية، يحتاج إلى الكثير والكثير من المجهود الذي يبذل كي يصل إلى تلك الغاية الحميدة.

وإن قوله تعالى: ﴿**فكذب وعصى**﴾ يتكون من فكرتين، يخص كل فكرة إحدى الجملتين. ومعنى الآية الكريمة. فكذب فرعون موسى عليه السلام وعصى ربه عزّ وجلّ. وكل أحد يستطيع أن يفهم أن العصيان لا حدود له.

وإن قوله تعالى: ﴿**فأراه الآية الكبرى**﴾ يتكوّن من فكرتين الإراءة للآية والكبرى.

وإن قوله تعالى: ﴿**ثم أدبر يسعى**﴾ يتكون من فكرتين، يخص كل فكرة إحدى الجملتين. ومعنى الآية الكريمة: إن فرعون لم يقبل دعوة موسى عليه السلام إلى الله تعالى بقبول حسن، إنما أعرض بشدة ، وجهد بعد ذلك في الكيد لموسى عليه السلام ودعوته. وكل أحد يستطيع أن يفهم أن كيد فرعون لا حدود له وسعيه في الفساد لا نهاية له.

ونود في حقيقة الأمر أن نقف عند الصورة الرائعة، والمشهد المتحرك اللذين ترسمهما الآية الكريمة. إنَّ الآية تستعمل جملة «أدبر» وليس أعرض مثلاً

---

(١) سورة فاطر: ٢٨.

أو نأى بجانبه أو طوى الكشح أو ما شابه كل ذلك. ويفهم من جملة أدبر أن هذا المعرض، إمعاناً منه في السفه والطغيان، وليّ الذي يهديه إلى ربه دبره، غير مكتفٍ بإصعار خده مثلاً أو النأي بجانبه. وإنّ هذه الصورة لشخصين أحدهما يدعو إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة وثانيهما يعرض في هذه الطريقة التي تدل على فساد الذوق وقلة الأدب، بالإضافة إلى أنها تظهر الحسن شديد الحسن، والقبيح شديد القبح، لاجتماع الضدين، هي تهيىء النفس لتقبل الجملة التالية «يسعى» قبولاً حسناً، وفهم السعي على حقيقته، لأن الشخص الذي يولي الآخر دبره، يعني أنّه مصمم على الانصراف. فإذا ما سعى، أي أسرع في العدو، ظهر دور توليته الآخر دبره، وثبت أنه كان، قبل السعي، مصمماً على الانطلاق في الطريق المعاكس تماماً لطريق الدعوة إلى الله. إنّ لنا في العدائين أوضح دليل، فهم حريصون على أن يهيئوا أنفسهم تماماً للانطلاق. ومن أهم مظاهر الاستعداد، استقبالهم الصحيح للهدف، واستدبارهم التام لخط البداية. هذا ما فعل فرعون. وهذه هي الصورة الرائعة التي أوحت بها الآية الكريمة.

وإن قوله تعالى: ﴿**فحشر فنادى**﴾ يتكون من فكرتين، يخص كل فكرة إحدى الجملتين. ومعنى الآية الكريمة. فجمع فرعون من كل حدب وصوب جنده وسحرته، ووقف خطيباً، وأخذ يهذي بما شاء، ويهدد ويتوعد بما أملى عليه حمقه وسفهه، حتى انتهى إلى أكذوبتيه الكبريين. الأولى والأخيرة. الأولى كما جاء في سورة القصص[1] على لسانه: ﴿**ما علمت لكم من إله غيري**﴾ والثانية قوله: كما جاء في هذه السورة على لسانه: ﴿**أنا ربكم الأعلى**﴾ وبينهما فيما يقال: أربعون سنة. إنّ جملة «نادى» بمبناها، تتيح للنفس أن يمتد، وإنّها بمعناها قابلة لأن يفهم كل أحد أن النداء بهذا الهذيان كان في كل حين، بسبب

---

(١) آية ٣٨.

وبدون سبب. إنَّ النداء يرتبط به ارتفاع الصوت ومده. فثمة تعاون بين المبنى والمعنى. على أن النداء والصراخ متعددي الجوانب والصور، شملا الكثير من السخافات والحماقات التي توجت أول الأمر بكبيرته الأولى، وتوّجت آخر الأمر بكبيرته الآخرة. وأكبر دليلٍ لنا على أنّ النّداء شاملٌ لكلّ شيء بما في ذلك كبيرته الأخيرة هو أن الآية الكريمة التالية: ﴿ **فقال أنا ربكم الأعلى** ﴾ تبدأ بالقول: «فقال» مما هو دليل على أن هذه الأكذوبة الكبرى الأخيرة متميزة عن كل ما سبقها، لذلك استحقت أن تصدر بما يخصها: ﴿**فقال أنا ربكم الأعلى**﴾ على الرغم من أن النداء أساساً يشملها. ألم نلاحظ من قبل، أن الآية الكريمة: ﴿ **اذهب إلى فرعون إنه طغى** ﴾ تستغني عن القول لأنه من جنس النداء في الآية السابقة: ﴿ **إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى** ﴾ بسبب كون الكلام الصادر من جهة واحدة في اتجاه واحد؟ ثم ألم نلاحظ من قبل أيضاً أنه حينما تغير اتجاه الكلام من إنكار كفار مكة للبعث إلى الاستهزاء، جاءت جملة قالوا بين يدي الاستهزاء مع إمكان الاستغناء عنها. قال تعالى: ﴿ **يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاماً نخرة. قالوا تلك إذن كرة خاسرة** ﴾.

لقد بقي علينا بشأن هذا القسم تأمل هذه الآية الكريمة: ﴿**فأراه الآية الكبرى**﴾ وهذه الآيات: ﴿**فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى**﴾.

أما قوله تعالى: ﴿**فأراه الآية الكبرى**﴾ فمعناه أن موسى عليه السلام أرى فرعون، بقدرة الله عزّ وجلّ، آيته الكبرى. وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن المراد بالآية الكبرى عصا موسى عليه السلام التي تتحول حية تسعى ، ويده التي تخرج من تحت إبطه، بعد إدخالها في جيب ثوبه (فتحة الصدر) بيضاء من غير سوء، فكأنها الشمس المشرقة. وحيث إنَّ آية اليد امتداد لآية العصا، لذا اعتبرت هاتان الآيتان، وهما أكبر آيات موسى عليه السلام التسع، آية واحدة.

وأما قوله تعالى عن فرعون: ﴿**فقال أنا ربكم الأعلى**﴾ فيلاحظ بشأنه

منتهى التطبيق العملي لإدبار فرعون وحرصه على السعي في الأرض بالإفساد. إنَّه يصر على أنه رب مصر الأعلى، بعد أن نبهه موسى عليه السلام، في ألطف طريقة وألين أسلوب إلى خطئه، وبعد أن أرشده إلى سبيل ربه عزّ وجلّ، وأراه آيات الله تعالى التي جحد بها هو وقومه ظلماً وعلواً وقد استيقنتها أنفسهم أنها من عند الله تعالى. والعجيب في أمر هذا الإنسان أنه لا يزداد بمرور الأيام إلاَّ تمادياً في العتو والضلال. فبعد أن هداه موسى عليه السلام إلى بارئه، وبعد أن أراه آيات الله تعالى يجيء على لسان فرعون، كما جاء في القرآن الكريم القول[1]: ﴿**وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري**﴾. ومع أنه عزّ وجلّ أمهله عله يرعوي إلى طريق الرشد، إلاَّ أنه لم يزدد في العتو والضلال إلاَّ تمادياً. وها هو ذا بعد أربعين سنة، على حد قول جمهور العلماء، من أكذوبته الأولى الكبرى، يجيء على لسانه أكذوبته الأخرى الكبرى كما جاء في القرآن: ﴿**فقال أنا ربكم الأعلى**﴾.

وحينما نقارن بين الأكذوبتين يتضح أن طغيان فرعون آخذ في الزيادة المستمرة. فهو رد فعل لتنبيهه إلى ربه عزّ وجلّ يكذب ويعصى ويكيد لموسى عليه السلام ويبالغ في ذلك الكيد حتى يزعم أنه لا يعرف لقومه من إله سواه! وإذا كان من الجائز لنا، حينما نقارن من زاوية التطور، بين الأكذوبتين، أن نلمح بشأن الأكذوبة الأولى دهاء العرض الذي قد يشتم منه النزر اليسير من الحيطة والحذر، ﴿**ما علمت لكم من إله غيري**﴾ وكأن لسان حاله يستمر قائلاً: وأنتم لا ينبغي لكم بل لا يصح أن تعلموا فوق علمي أو غير علمي. فإنَّ ذلك الدهاء يتحول وقاحة، وذلك النزر اليسير من الحيطة والحذر يتحول طغياناً سافراً لا حد له بشأن الأكذوبة الثانية ﴿**أنا** ربكم الأعلى﴾ إنَّه إذا كان بشأن الأكذوبة الأولى نفي للشريك في دهاء وخبث. فإنَّ بشأن الأكذوبة الثانية اثباتاً

---

(١) سورة القصص: ٣٨.